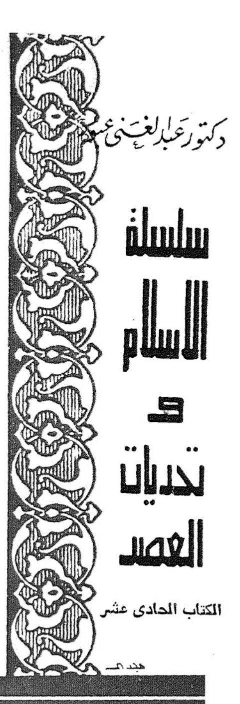
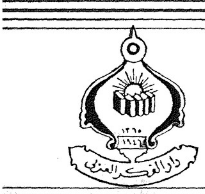


دكتور عبد الغنى عبود

سلسلة الاسلام و تحديات العصر

الكتاب الحادى عشر

الحضارة الإسلامية
و
الحضارة المعاصرة



الطبعة الأولى

فبراير ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

— « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب »

(قرآن كريم ص — ٣٨ : ٢٧ — ٢٩) .

* * *

— « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل : رب أنزلنى منزلا مباركا ، وأنت خير المنزلين »

(قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ٢٧ — ٢٩) .

* * *

— « قالوا : ياذا القرنين ، إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا ، على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة ، أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين ، قال : انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال : آتونى ، أفرغ عليه قطرا . فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا . قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى ، جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا »

(قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٩٤ — ٩٨) .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هــذه السلسلة

ليست هذه السلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيدا كل البعد عن الدين ، قريبا كل القرب من العلم الخالص . . . فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث ودراسات .

وصحيح أن الدين ليس حكرا على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة و... التربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه ، بأنه لا يوجد — للأسف — تربية إسلامية (١) .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

---

(١) ألف الزميل كتابا فى (التربيــة الاسلامية) ، بعد حوالى أربع سنوات من قوله هـذا ، وذلك عندما صار (الحصــان الاســلامى) ، هو (الحصــان الرابح) ، على الساحة العالمية — كما هو واضــح اليــوم — بحمــد الله .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية سوى . . العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته ، كان لمفكرين إسلاميين . . كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن تصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت بالفعل — على أساسها — كتابا متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام) - لم يكن ينقصه سوى أن يدفع به إلى المطبعة ، ليرى — بعدها - النور ، ويبث - بعدها نور الحقيقة ، فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى - من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت بعد ذلك على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريبا ، تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية) ، نظراً لأن كل مقال من

المقالات الثلاثة قد صدر — حينما صدر — مليئا بالأخطاء المطبعية ، التى أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف . . إفسادا (١) .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القوميه الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى الحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظـــام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقا فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموما ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموما ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الإسلامية . . فلم تجد حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شرا على الإسلام وخطرا

---

(١) صدر الكتــاب بالفصــل ، بعد الطبعـــة الأولى للكتاب الأول من السلسلة ، تحت عنوان (فى التربية الاسلامية) ، ونشرته دار الفكر العربى سنة ١٩٧٧ ، وضم الى جانب المقــال المذكور ، مجموعة مقالات ، كانت قد نشرت فى مجلات علمية مختلفة ، بمناسبات مختلفة ، تدور كلها حول هــذا المحور ، الذى اتخذ عنوانا للكتاب .

عليه ، أكبر من الشر والخطر ، الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح ، لها هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم ، لعادوا إلى أنفسهم ، وعادت إليهم قوتهم وعزتهم . . وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التى قمت بها ، أكدت لى أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم - بدونه - عاجزون .

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة . . تربويا خالصا .

ولكنه هدف . . دينى أيضا .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه ما يعرفه غيرهم لهم ، لا ما يجب أن يعرفوه بأنفسهم . . من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة ، ذات البريق . . الأخاذ ، الكثير والكثير . لأن غيرهم أراد ذلك لهم .. بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة هى : أن تضع الإسلام - بجوانبه المتعددة - وجها لوجه - أمام النظم والفلسفات المعاصرة . . لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر .

وعندما يكتشف المسلم أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هى إلا ألوان من العلاج مؤقتة . . فاشلة ، فإنه - لابد - سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف

على ما فيه .. وقوفه عـــلى ما فى الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ .. الخادع .

وعند هذا الحد تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى .

ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين منذ البداية ، لأن يضيعوا وقتا فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام - كما فهموه - لا يصح أن يضيعوا فيه وقتا ، يضيعون أكثر منه فى المذاهب ذات البريق ... الخداع .

وبعد اتضاح (معالم) (الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة .. وذلك من خلال هذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقا للحديث ، عن (التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل بعدها فى الحديث عن التربية الإسلامية كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية - بعدها - فى نظرى - أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتــور عبد الغنى عبــود

القاهرة فى : جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ .
- مايو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب الحادى عشر

ما أكثر ما كتب عن الحضارة من الكتب والدراسات والمقالات ، سواء لتأصيلها نظريا ، أو لدراستها واقعياً ، فى مجتمع من المجتمعات أو أكثر .

وما أكثر ما كتب عن الحضارة الإسلامية ، من الكتب والدراسات والمقالات .

وكثرة الكتابات على هذا النحو ، عن موضوع هذا الكتاب الحادى عشر ، أمر بالغ حدا كبيراً من الإزعاج ، بالنسبة لمن يريد أن يدرس مثل هذا الموضوع .

ذلك أن موضوع الحضارة — أو المدنية — أو العمران — من الموضوعات الحديثة ، التى حاول الكثيرون أن يلجوها ، ليضعوا أيديهم عليها ، فإذا بهم لا يضعون أيديهم على شىء على الإطلاق ، بل يفرضون شخصياتهم — وتخصصاتهم — على الموضوع ، فيظهر التخصص ، وتظهر الشخصية ، ولا تظهر الحضارة .

ويكفى أن تقرأ لبعض الكتاب العالميين فى الموضوع ، على سبيل المثال ، فتراه يصف الحضارة الغربية المعاصرة ، ورجال الغرب الذين (أبدعوها) ، بعيونهم الزرقاء ، وشعرهم الأصفر ، ودينهم المسيحى ، بمذهبيته البروتستانتية أو الكاثوليكية ، ويعتبر ذلك هو الحضارة .. وغيره بدائية .

ثم إذا بك تقرأ لكتاب عالميين آخرين ، مواطنين للكتاب العالميين

السابقين ، فتراهم يقفون على الجسر المقابل ، ينكرون الحضارة الغربية ، وما تردت إليه ، ويولون وجوههم شطر الهند والصين ومصر القديمة . . وكأنما الحضارة الحديثة ، شيء لا وجود له .

إنها كتابات كثيرة ، تلك التي كتبت عن الحضارة . . ولكن كثرتها تزيد في بلبلة القارئ ، أكثر مما تقدم له فكرا معينا . . يضع يده على خيوط الموضوع ، ليصنع من الخيوط نسيجا متكاملا .

أما الحضارة الإسلامية ، فإن الكتابات الكثيرة التي تدور حولها ، كتابات متناقضة تماما ، فبعضهم يعتبرها حضارة همجية ، كل مهارتها أنها جمعت حضارات السابقين . . ثم توقفت ، وبعضهم يراها حضارة شهوانية ، شقت طريقها إلى صفحات التاريخ ، بتعبيرها عن ذلك المسلم الشهواني ، الذي فرض نفسه على التاريخ فترة ، كانت - في نظره - أشد فترات التاريخ الإنساني ، سوادا وهمجية .

وبعضهم أنصف الحضارة وأنصف الإسلام وأنصف المسلمين ، ولكن إنصافهم يزد على أنهم (يتهم) الإسلام بالهمجية ، والمسلمين بالشهوانية ، وإنما عرض لحضارة الإسلام ، (بنزاهة) ، عرضه للحضارات الهندكية أو البوذية أو البابلية أو الآشورية أو الفينيقية أو المصرية القديمة .

ثم يأتي المسلمون ، وهم يعالجون القضية ، فإذا بهم لا يتحدثون عن الحضارة الإسلامية ، وإنما يتحدثون عن (الدين الإسلامي) ، ويعتبرون أنفسهم بذلك يتحدثون عن (حضارة الإسلام) ، ناسين أنهم لم يتحدثوا — بذلك — لا عن الدين الاسلامي ، الذي توهموا أنهم تحدثوا عنه ، ولا عن الحضارة الاسلامية ، التي اختاروها عنوانا لما كتبوا .

وحتى تكون منصفين ، فإن هناك جهودا مخلصة واعية . . ظهرت من

بعض المفكرين المسلمين، فى هذا المجال، ولكنها كانت بمثابة قطرات محدودة، فى بحر لجى، متلاطم الأمواج .

هذا هو ما لمسته ، من خلال تتبعى للمادة العلمية، التى يمكن أن تتخذ لمعالجة موضوع (الحضارة الاسلامية) ، وما أحسب الأمر كان سهلا بالنسبة لى ، ولولا عون الله ، ما اســـتطعت أن أقطع طريق الدراسة إلى منتهاه .

وأحسب أن (المحاور) التى دارت حولها الدراسة فى هذا الكتاب ، تحقق حاجة فى نفسى ، لا أعلمها ، تولدت من خلال ما قرأته ، وهو كثير كثير ، إذا ماقورن بما رجعت إليه من مراجع بالفعل ، مثبتة فى قائمة المراجع، فليس كل ما يقرؤه المؤلف ، يستعين به بالضرورة . ولكنه — رغم ذلك — يظل باقيا فى نفسه ، يفعله فعله ، فى تحديد أفكاره وتلوينها — برغم عدم ظهوره .

كان لابد من تتبع (أصل الحضارة) على نحو ما اخترت عنوانا للفصل الأول ، وكان لابد من حسم هذه القضية : هل الحضارة شىء (شيطانى) ، ينمو بمعزل عن أمة تنسب إليها هذه الحضارة ، أم أن الحضارة (بنت) بيئة معينة ، (تولد) فيها ، و (تنمو) ، ثم (تهرم) وتشيخ أيضاً ؟

وكان لابد — من ثم — من توضيح (العلاقة العضوية) ، التى تربط بين الحضارة والثقافة ، أى بين الحضارة ، وبين شخصية الأمة ، أو الشخصية القومية National Character ومن ثم توضيح (العلاقة العضوية)، بين (الدين) ، وبين الحضارة ، بوصف الدين عنصرا أساسيا من العناصر ، التى تقوم عليها هذه (الشخصية القومية) .. لأية أمة .

ثم كان لابد من البحث عن (الجو العام) ، الذى (تنمو) فيه الحضارة،

على نحو ما اخترت عنوانا للفصل الثانى ، لتوضيح ما إذا كان انتساب الحضارة إلى أمة ، فى فترة تاريخية معينة ، كما هى الحضارة الغربية اليوم ، يعنى (تميز) هذه الحضارة ، واقتدارها ، وقدرتها على الخلق أو الابداع الحضارى ، كما يدعى الغربيون اليوم ، أم أنه رهن بظروف معينة ، يمكن أن (تتوفر) لكل أمة ، فتكون بداية مسيرتها الحضارية ، ويمكن أن (تتغير) فى أمة متحضرة بالفعل ، أو قطعت فى طريق الحضارة شوطا ، قصيرا أو طويلا . . فتكون الانتكاسة الحضارية ، كما يقال عن حضارة الغرب اليوم . أنها فى طريقها إلى الأفول .

وقد توصلت من خلال هذا الفصل كله ، إلى أن الحضارة ، إن هى إلا (كائن حى) ، وإلى أنها — بوصفها كائنا حيا — ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الكائنات الحية ، من طفولة وشباب — أو فتوة أو قوة أو ا كتمال — وشيخوخة .

ومن ثم كان لابد من تتبع الحضارات القديمة ، على نحو ما اخترت عنوانا الفصل الثالث ، للتأكد من صحة ماتوصلت إليه ، وقد استعرضت من هذه الحضارات القديمة أشهرها ، وهى الحضارات الهندية والصينية ، والإغريقية والرومانية .

والحضارات الأربع ، بالإضافة إلى أنها من أشهر الحضارات القديمة ، تعتبر ممثلة للحضارات القديمة على وجه العموم ، فالحضارتان الهندية والصينية فيها ، تمثلان حضارة الشرق وروحه ، وقريب منها حضارة اليابان ، والحضارات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والفارسية وغيرها . والحضارتان الإغريقية والرومانية ، هما الأساس ، الذى قامت عليه حضارات الغرب ، فى عصريه الوسيط والحديث .

أى أن ما ينطبق على الحضارات الأربع ، ينطبق على كل حضارة إنسانية ، وهذه هى قيمة هذا الفصل ، بحضاراته المختلفة .

وينقلنا ما قلناه فى الفصول الثلاثة السابقة ، إلى الحضارة الغربية المعاصرة ، لنرى أصولها التاريخية ، ولنرى (الجو العام) الذى أدى إليها ، ثم لنتابع منجزاتها ، ثم لنقف — فى النهاية — على الآثار النهائية لها ، بوصف الحضارة الإنسانية جهداً بشريا ، والجهد البشرى يتكون — عادة — من مجموعة من السلبيات والإيجابيات ، وبوصفه يقترب من كماله ، بقدر ما تزيد إيجابياته ، وتقل السلبيات ، ويبتعد عن هذا الكمال ، بطغيان السلبيات ، وانكماش الايجابيات أو تضاؤلها .

ثم كان لابد — أخيرا — من وقفة طويلة ، عند الحضارة الاسلامية ، بوصفها الهدف النهائى من الدراسة ، إذا اعتبرناها دراسة تقوم على شقين أساسيين : أولهما هو الحضارة الإسلامية ، والثانى هو الحضارة المعاصرة — أو الغربية .

وكان لابد من البحث عن (أصل) هذه الحضارة ، كما فعلنا فى الحضارة الغربية ، ولنقف عن الفارق الجوهرى بين هذه الحضارة — الإسلامية — وبين الحضارة الغربية المعاصرة ، ولنرى أن الحضارة الإسلامية — فى أصلها — حضارة (إنسانية) ، لكل الناس .. بينما الحضارة الغربية — فى أصلها — حضارة جنس أو عنصر ، ومن ثم كانت حضارة عدوانية ، فيها من عناصر التدمير ، ما نراه فيها اليوم ، وما رأيناه فيها بالامس القريب .

وبعد هذا (الاستعراض) السريع لهذا الكتاب الحادى عشر من

كتب السلسلة ، وما فيه ، نعود إلى السؤال الأساسى ، الذى يفرض نفسه ، ويجيب عليه المسلمون إجابات ، تتراوح بين الإفراط فى التشاؤم ، والإفراط فى التفاؤل ، وهو :

هل يمكن أن تكون للمسلمين اليوم حضارة ، أم تراهم سيظلون يعيشون على (تراث) الماضى ، ليتصوروا أنفسهم أصحاب حضارة ؟

ـ وإذا كانت الإجابة ، هى (إمكانية) قيام هذه الحضارة ، فى المستقبل القريب أو البعيد ، فهل (سيتمكنون) من إقامتها ، بالإسلام ، م بدونه ؟

والكتاب يجيب عن السؤالين (المحددين) ، بطريقة مباشرة ، وبطريقة غير مباشرة أحيانا ، ولكنه ـ فى الجزء الأخير منه ـ يحاول أن يكون أكثر (تحديدا) ، فيما يتعلق بهذه القضية بالذات .

ومن خلال هذا التحديد ، يجد الانسان نفسه (مضطرا) ، إلى إلقاء الضوء ، على كثير من التيارات المعاصرة ، فى داخل العالم الإسلامى ، وخارج هذا العالم ، وكلها تسعى لأن تحول بين المسلمين ، وبين الوصول إلى هذه الحضارة الإسلامية المعاصرة . . المنشودة .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة فى : ربيع الثانى ١٤٠١ هـ . دكتور عبد الغنى عبود
فبراير ١٩٨١ م .

الفصل الأول

أصل الحضارة

تقـــديم :

تكاد ألفاظ (الثقافة)و(الحضارة) و (المدنية) ، أن تكون فى الكتابات العربية المعاصرة ، من قبيل الألفاظ المترادفة ، التى تدل على شىء واحد ، هو (الحضارة) ، أو (الرقى) ، أو (التقدم) .

بل إن من يرجع إلى معاجم اللغة المختلفة ، على نحو ما سنرى ، لا يسعه إلا أن يلاحظ بوضوح ، مثل هذه الصلة ، بين الألفاظ الثلاثة ، بما يؤكد أن ورود هذه الألفاظ ، فى الكتابات العربية المعاصرة ، على أنها مترادفة ، له أصوله اللغوية أيضاً .

ورغم ذلك ، فإن معاجم اللغة ذاتها ، على نحو ما سنرى أيضاً ، تضع (حواجز) واضحة أيضاً ، بين كل لفظ من الألفاظ الثلاثة ، واللفظين الآخرين .

ووجود ترابط بين الألفاظ الثلاثة ، رغم أن لكل منها (أساساً) مختلفا عن أساس غيره ، له (دلالته) فى معنى الحضارة هذا ، على نحو ما سنرى ، عبر فصول هذا الكتاب .

ولنبدأ بالوقوف على معنى كل لفظ من الألفاظ الثلاثة ، قبل أن نقف على الرابطة التى تربط بينها .

معنى الثقافة :

الأصل الأول لكلمة الثقافة هو الفلاحة أو الزراعة(١) فى اللغة الإنجليزية ، و « زراعة مزروعات »(٢) فى اللغة الفرنسية .

ويبدو أن الثقافة Culture - فى اللغتين - جزء من أصل كبير ، هو Agriculture ، التى تعنى - فى اللغتين الانجليزية والفرنسية - الزراعة ، بإضافة المقطع Agri ، إلى كلمة الثقافة Culture ، لسبب سنراه فيما بعد .

وقد تتسع الثقافة فى اللغة الإنجليزية ، فتعنى « الزراعة تربية الزرع أو النحل »(٣) - أى تعنى التربية بشكل عام ، على أن تكون هذه التربية ، لغير الإنسان .

ويبدو أن كلمة الثقافة ، اتسعت بعد ذلك فى معناها ، فشملت تربية الإنسان أيضاً ، إلى جانب شمولها غير الإنسان ، من زرع وحيوان ، فصارت تعنى « أخلاق الناس وعاداتهم - نمو أى شىء يحتاج إلى رعاية خاصة - تحسين وضع الإنسان بالدراسة »(٤) .

---

(1) AL-NAHDA DICTIONARY, English - Arabic, Compiled by : ISMAIL MAZHAR, Revised by : MOHAMMAD BADRAN and I. ZAKI KHORSHID, Vol. I ; First Edition, The Renaissance Bookshop,p. 290.

(2) SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDER : Vocabulaire, Francais - Arabe ; Longmans, Green and Co., London, 1951, p. 90

(3) The Concise Oxford Dictionary, of Current English, Edited by : H.W. FOWLER, based on : The Oxford Dictionary ; Fourth Edition, Revised by : E. McINTOsH ; Oxford, at the Clarendon Press, 1959, p. 292.

(4) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary ; Revised Edition, Longmans, Green and Co., London. 1948, p. 78.

ثم يبدو أن الكلمة زادت اتساعا ، بتوجهها إلى (أخلاق الناس وعاداتهم)، فصارت تعني - فيما تعنيه - «تهذيب - تثقيف العقل»[١]، وصار معنى « ثقف : صار حاذقاً - ثقف : هذب . ثقف : قوم - ثقف عقله To cultivate one's mind»[٢] - أى تنمية عقل الإنسان .

أى أن الكلمة يبدو أنها زادت اتساعا ، فصارت تشمل - إلى جانب الأخلاق والعادات - العقل والذوق ، فصار معنى « (ثقف) الرجل - من باب ظرف ، صار حاذقاً خفيفاً ، فهو (ثقف)»[٣]، بقدر ما لديه من « علم وذوق ، وفنو ... يلة»[٤] .

ثم يبدو أن الكلمة - أخيراً - بدأت تنفصل عن (أصلها) الأول (الزراعة) ، لتتصل بهذا (الفرع) الأخير ، فصارت (ثقف) تعنى « صار حاذقاً فطنا » - « ثقف العلم والصناعة : حذقهما » ، وصارت الثقافة تعنى « العلوم والمعارف والفنون ، التى يطلب الحذق فيها »[٥] .

---

(١) اليـاس انطون اليـاس : قاموس الجيب ، انكليزى / عربى — المطبعة العصرية بمصر ، ص ٧١ .

(٢) الياس انطون الياس ، وادوار ا. الياس : القاموس العصرى : عربى / انكليزى — الطبعة التاسعة — المطبعة العصرية بمصر — ١٩٧٠ ، ص ٩٩ .

(٣) مختار الصحاح ، للشيخ الامام محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البـابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م ، ص ٩٩ .

(4) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH ; Op. Cit., p. 78.

(٥) المعجم الوسيط — قام باخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون — واشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجـزء الأول — مجمع اللغـة العربيـة — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٩٨ .

وتطور معنى كلمة الثقافة Culture من (الزراعة) فى بدئها ، إلى (العلوم والمعارف) ، انتهاء ، له مدلوله ومغزاه ، أو لابد أن يكون له مدلوله ومغزاه ، لأن تطور اللغة ، ومدلول مفرداتها ، مرتبط - كما نعلم - بحياة الإنسان ، وتطور حاجاته ، ومطالب حياته .

ورغم احتمال هذا التطور ، فإن الفرق يجب أن يظل واضحاً ، بين (الثقافة) من جانب ، وبين (الحضارة) أو (المدنية) ، من جانب آخر .

ومن ثم يتفق علماء التربية ، وعلماء الأنثروبولوجى معاً ، على أن المعنى الاصطلاحى للثقافة ، هو أنها تعنى ، « كما تستخدم الآن فى العلوم الاجتماعية » ، « طريقة الحياة الكلية للمجتمع ، وقد تتضمن أسلوب تناول الطعام ، أو ارتداء الملابس ، أو استخدام اللغة ، أو تبادل الحب ، أو الزواج ، أو دفن الموتى ، أو لعب كرة القدم . وقد تشمل أيضاً قراءة الأدب ، أو سماع الموسيقى ، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين ، أو الأنواع الأخرى من النشاط »(١) .

ومن ثم فالثقافة - على النقيض من العلم - لا يمكن أن تفهم « على أنها تعنى مستوى عال للامتياز العقلى والفنى ، فى شخص أو مجموعة »(٢) ، إذ هى ملك للجميع ، فلا يوجد إنسان مثقف ، وآخر غير مثقف ، على النحو الذى نستخدمه فى حياتنا العادية خطأ ، إذ أن لكل إنسان ثقافته ، صغيراً كان هذا الإنسان أو كبيراً ، غنياً أو فقيراً ، متعلما أو جاهلا ، رجلا أو امرأة ، ولكل مجتمع من المجتمعات أيضاً ثقافته ، مهما كانت الظروف المحيطة بهذا المجتمع » .

---

(١) ا . ك . اوتاواى : التربية والمجتمع — ترجمة دكتور وهيب ابراهيم سمعان وآخرين — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

« فالثقافة بالنسبة للفرد ، مرادف (للشخصية) » ، « والثقافة بالنسبة للمجتمع ، مرادف (للشخصية القومية) ، التى يتميز بها هذا المجتمع ، عن غيره من المجتمعات »(١). إنها « ذلك النسيج الكلى المعقد ، من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات ، والقيم وأساليب التفكير والعمل ، وأنماط السلوك »(٢) ، أو هى « جميع طرائق الحياة ، التى طورها الناس فى المجتمع » ، « وكذلك المنتجات المادية »(٣) .

وإذا كانت الثقافة مرادفا (للشخصية) بوجه عام ، سواء فى ذلك الشخصية الفردية ، والشخصية القومية ، فإن الحضارة أو المدنية ، بعيدة كل البعد عن هذا المعنى ، على نحو ماسنرى .

معنى الحضارة او المدنيـــة :

الحضارة والمدنية ، لفظان مترادفان فى اللغة العربية ، يقابلهما فى اللغة الانجليزية كلمة Civilization (٤) ، ويقابلها فى اللغة الفرنسية نفس اللفظ تقريباً Civilisation(٥) ، مع اختلاف محدود فى النطق ، بين الكلمتين ، الإنجليزية والفرنسية ، لا يقف عند حدهما ، وإنما يتعداهما إلى كل كلمتين متشابهتين فى شكل الحروف ، وخاصة فى مقطع الكلمتين الأخير .

---

(١) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبـــود : نحـــو فلسفة عربيـــة للتربية — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧٩ ، ص ٦٧ .

(٢) دكتـــور الدمرداش سرحان ، ودكتـــور منير كامل : المنـــاهج — الطبعة الثالثـــة — دار العلوم للطباعة — ١٩٧٢ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) ج . ف . نيللر : الأصول الثقافية للتربية ، مقدمة فى انثروبولوجيا التربية — ترجمـــة الدكتـــور محمـــد منير مرسى وآخرين — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ١٤ .

(٤) اليـــاس أنطون اليـــاس ، وادوار ا . الياس (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ .

(5) SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDER ; Op. Cit., p. 62.

وأصل الكلمة فى اللغتين ، هو Civil ، بمعنى مدنى ، أى غير عسكرى ، و متحضر ، يعيش فى جماعة بشرية ، يحكمها قانون ونظام .

والحضارة فى اللغة العربية ، أحد مصادر الفعل (حضر) ، بمعنى ى ، يقال : «(حضر) فلان - حضارة : أقام فى الحضر ، و« (تحضر) يتحضر .. تخلق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم »[١] .

و « الحضر بفتحتين خلاف البدو » ، و « (الحاضر) ضد البادى ، و (الحاضرة) ضد البادية ، وهى المدن والقرى والريف ، والبادية ضدها » .

ويقال : « فلان (حاضر) بموضع كذا ، أى مقيم به ، و (الحضارة) بالكسرة : الإقامة فى الحضر »[٢] .

و (الحضارة) فى ذلك ، لا تختلف عن (المدنية)، إذ أن (المدنية) نسبة إلى (المدينة) ، وهى تعنى « الحضارة واتساع العمران » و « (تمدن) عاش عيشة أهل المدن ، وأخذ بأسباب الحضارة »[٣] .

واتفاق (الحضارة) و (المدنية) أمر طبيعى ، إذ أن الحضارة من الحضور ، والحضور ، مقصود به الحضور إلى (المدينة) ، التى تنسب إليها (المدنية) ، والتى تعتبر مجتمعا للمهارات والخبرات ، وللعلوم والفنون ، ولذلك كانت الحضارة والمدنية ، تعنيان أيضا « العمران »[٤] ، وهذا العمران ، يعنى ارتفاع مستوى الحياة ، وهذا الارتفاع فى مستوى الحياة ، لابد أن ينعكس

---

(١) المعجم الوسيط — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ١٨٠ .
(٢) مختار الصحاح (مرجع سابق) ، ص ١٥٩ .
(٣) المعجم الوسيط — قام باخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون — واشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الثانى — مجمع اللغة العربية — ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م ، ص ٨٦٥ .
(4) AL-NAHDA DICTIONARY, ENGLISH-ARABIC, Vol. I ; Op. Cit., p. 211.

على السلوكيات والأخلاقيات، فتكون أرقى، ولذلك كان المتحضر أو المتمدن Civilised أيضا، هو الإنسان « المهذب »(١)، وكان التحضير أو التمدين To civilise، معناه « التغيير من حالة البداوة، وتعليم الأخلاق والسلوكيات والعادات والقوانين الطيبة، وكذا تعليم العلوم والفنون »(٢)، ونقل الإنسان من حالة البربرية أو البدائية أو التخلف، إلى التنوير »(٣).

ولا يمكن — والحالة هذه — أن نوافق اشبنجلر على ما يذهب إليه، من تفريق بين (الحضارة) و (المدنية)، على أساس أن « الأولى تمثل الجسد الحى للنفس، والثانية مومياءها »، وأن « الأولى نظام عضوى، أولدته الأرض الأم، والثانية أنجبتها الميكانيكية، المنطلقة من الصناعة المخشوشنة، فالرجل الحضارى، يحيا باطنا، بينما أن رجل المدنية يعيش ظاهرا، فى الفراغ، وبين الأجسام و (الوقائع) »(٤)، أو على أساس أن « المدنية » هى « المرحلة الأخيرة للحضارة »(٥) — أو هى الحضارة، فى مرحلة ذبولها.

قصـــة الحضارة الانسانيـــة :

وربما ألقت لنا (قصة الحضارة) الإنسانية، أو (نشأتها وتطورها)، مزيدا من الضوء عليها.

ومعروف أن الإنسان لم يعرف الحضارة، قبل القرن الأربعين قبل الميلاد، نتيجة لتجمعه قبل ذلك بحوالى عشرين قرنا. وكان الإنسان، قبل هذه

---

(1) Ibid., p. 211.

(2) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH ; Op. Cit., p. 59.

(3) The Concise Oxford Dictionary of Current English ; Op. Cit., p. 215.

(٤) أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثانى — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤، ص ٩٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٦٣ (من الهامش).

القرون الستين السابقة على ميلاد السيد المسيح، قد داعتاد الحياة فى انعزالية»(١)، و «كان كفاحه شديدا فى سبيل بقائه، والحصول على طعامه، ودفاعه عن نفسه»(٢).

وأغلب الظن أن هذا الإنسان البدائى، قد «اكتشف النار» بالصدفة المحضة، «وأحس بقوتها وبأسها، فخاف منها بادئ الأمر، وتملكه الذعر والفزع، ولكنه ما لبث أن سيطر عليها، وألبسها اللجام»(٣)، وهنا بدأت حياته تنقلب رأسا على عقب، فقد «تمكن الإنسان من إطالة يومه، كما استطاع أن يطارد الحيوانات المفترسة، وأن يطهو طعامه، ويجلب الدفء والراحة لحياته»(٤)، بعد أن هبط «من أعالى الأشجار، إلى الأرض»(٥)، وبدأ (يتجمع) فى جماعة صغيرة أول الأمر، كبرت شيئا فشيئا، وصار ينتقل معها من مكان إلى مكان، «وحياة الجماعة تدرب الذوق وتصقله، وتزرع

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربيــة والتعليم ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٢، ص ٤٦.

(٢) ثيا وريتشارد برجير : من الحجارة الى ناطحات السحاب (قصة العمارة) ـ ترجمة المهندس محمد توفيق محمود ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٢، ص ٨.

(٣) دكتور حسن حسنى أبو السعود : «النظائر المشعة، فى خدمة الصناعية» ـ **الذرة فى خدمة السـلام** ـ مجموعة المحاضرات، التى القيت بالمؤتمر السنوى السادس والعشرين، للمجمع المصرى للثقافة العلميـة، الذى عقد فى المدة من ٣١ مارس الى ٥ ابريل سنة ١٩٥٦ ـ رقم (٢٧) من (الألف كتاب) ـ مكتبة مصر، ص ١٨٦.

(٤) الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء، من خلال انبـوبة الاختبار ـ ترجمة الدكتور الفونس رياض، والدكتور عبد العظيم عباس ـ مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل ـ رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) ـ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ص ٢٣.

(٥) رالف لنتون : دراســة الانسان ـ ترجمة عبد الملك الناشف ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٦٤، ص ٢٣.

فى النفس احترام الآخرين ، وحب هؤلاء الآخرين ، بل كثيرا ما تجعل مصير الإنسان ، مرتبطا بمصير الجماعة ، ومن ثم فهى تكبح جماح النفس ، وتعصم من شرورها ، وتقضى على ما بها من وحشية وبربرية »(١) .

ثم خاض الإنسان ، مع الجماعة الإنسانية الأولى ، عددا من (الثورات) ، كانت أولاها ، هى (الثورة الزراعية) ، التى يرى كلنتون هارتلى جراتان ، أنها « تساوى أهمية الثورة الصناعية ، على أقل تقدير ، ومعناها الأساسى ، إحلال إنتاج الطعام ، بطريقة دائمة منتظمة ، محل جمع الطعام ، من هنا وهناك »(٢) .

ولم يكن نجاح الإنسان ، فى هذه (الثورة الزراعية) ، وليد صدفة محضة ، كما كان اكتشافه للنار من قبل ، وإنما كان ثمرة طبيعية ، من ثمار حياة الجماعة ، التى عاشها ، بعد اكتشافه النار ، حيث (التفكير المشترك) ، الذى أوصله إلى معرفة كثير من الأمور عن الأرض ، وكيفية تعامله معها ، واستغلاله إياها ، لتوفر له هذا (الطعام الدائم المنتظم) ، ثم كان نجاحه فيها ، هو الذى أدى إلى خلق (مجتمع القرية) ، حيث تم « توزيع العمل وتحديده ، وحيث تداخلت المصالح وتشابكت ، وحيث تم التعاون المشترك ، لتحقيق أهداف الجماعة » (٣) .

وبزيادة عدد القرى ، وزيادة تشابك المصالح بين هذه القرى ، انتقل

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ٧٩ .

(٢) كلنتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه — تقديم صلاح دسوقى — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٦٢ ، ص ٢٨ .

(3) SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education ; Philosophical Library, New - York, 1955, p. 13.

الإنسان إلى (ثورته) الثانية ، وهى (الثورة الصناعية)، التى تفجرت هذه المرة، فى (المدينة) ، التى دعت الحاجة إلى وجودها ، (كمركز) لخدمة مجموعة من القرى ، تحيط بها .

وفى المدينة ، ظهرت الصناعات ، بدائية بسيطة أول الأمر ، ثم سرعان ما تعقدت ، « ووصلت إلى درجة عالية من الحذق والصقل ، ودقة الصنع »(١).

وإلى هذه الثورة الثانية ، تنتسب الحضارة ، أو المدنية ، التى تحدثنا عنها، « وهى تطلق الآن – اصطلاحا – على كل ما ينشئه الإنسان ، فى كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه ، عقلا وخلقا ، مادة وروحا ، دنيا ودينا . فهى – فى إطلاقها وعمومها – قصة الإنسان ، فى كل ما أنجزه ، على اختلاف العصور ، وتقلب الأزمان ، وما صورت به علاقته بالكون وما وراءه ، وهى – فى تخصيصها بجماعة من الناس ، أو أمة من الأمم – تراث هذه الأمة أو الجماعة على وجه الخصوص ، الذى يميزها عن غيرها من الجماعات والأمم »(٢) .

بين الثقافة والحضارة :

يرى الدكتور فهمى جدعان ، أن « المجتمع كالفرد ، وجود تاريخى ، بمعنى أنه جماع خبرات التاريخ الثقافى الفردى والعام . ومعنى ذلك، أن دراسة الفرد والمجتمع ، دراسة ثقافية – تاريخية ، تلزم بالانطلاق ، من الواقع الاجتماعى التاريخى، باعتباره امتداداً فى الماضى والحاضر والمستقبل ، لا أنه

---

(١) دكتور سعد مرسى احمد : تطور الفكر التربوى – عالم الكتب – ١٩٧٠، ص ٥٣ .

(٢) الدكتور محمد محمد حسين : الاسلام والحضارة الغربية – الطبعة الثانية – دار الفتح – بيروت – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م ، ص ٤ (من المقدمة) .

مجرد حالات ساكنة ، يمكن تثبيتها فى المكان والزمان ، وعزلها عزلا فيزيائيا عن الحالات السابقة ، أو الحالات التالية ، التى تنذر بها أو تعد »(١) .

ويرى ول ديورانت ، أنه « لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنية بالزراعة ، فلقد بدأت الصناعة بالنار ، التى لم يخترعها الإنسان اختراعا ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة » . « ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار ، استخدمها على ألف صورة ، أولها فيما نظن ، أنه اتخذ منها شعلة ، يقهر بها عدوه المخيف ، ألا وهو الظلام » ، « ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار فى المعادن ، فيلينها ويطرقها » ، مقلدا « آلات الحيوان وصناعته » ، « وكان النبات الذى يحيط بالإنسان البدائى ، مصدر الكثير من الآلات ، فمن الخيزران ، صنع الإنسان السهام والمدى والإبر والقوارير ، ومن فروع الشجر صنع الملاقط والماسك » . « كذلك استغل الإنسان المعادن » ، « ومن دنيا الحيوان ، صنع أدواته » . « وتبدت مهارة الإنسان البدائى ، فى فن النسيج » . « وصناعة الخزف قريبة الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة منها »(٢) .

وإذا كانت الثقافة هى الزراعة فى أساسها ، والمدنية أو الحضارة ، هى الصناعة فى أساسها ، فإن العلاقة بين الحضارة أو المدنية ، وبين الثقافة ، تغدو واضحة ، وذلك لأن الحضارة عندما قامت ، لم تقم من فراغ ، وإنما قامت على أساس . الثقافة .

وقد أحسن ول ديورانت ، التعبير عن هذه الحقيقة ، حين قال : « إن

---

(١) الدكتور فهمى جدعان : أسس التقدم عند مفكرى الاسلام ، فى العالم العربى الحديث — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ ، ص ٧ (من المقدمة) .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٩ ، ص ٢٢ — ٢٥ .

الثقافة لترتبط بالزراعة ، كما ترتبط المدنية بالمدينة . إن المدينة فى وجه من وجوهها ، هى رقة المعاملة ، ورقة المعاملة ، هى ذلك الضرب من السلوك المهذب ، الذى هو فى رأى أهل المدن — وهم الذين صاغوا حكمة المدنية — من خصائص المدينة وحدها ، وذلك لأنه تتجمع فى المدينة — حقا أو باطلا — ما ينتجه الريف من ثراء ، ومن نوابغ العقول » . إن « المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، ولكنها لا تزدهر ، إلا فى المدن »(١) .

ثم يرتب ول ديورانت ، على هذه (المقدمة) ، (نتيجة) مبنية عليها ، حين يرى أن « (الهمجى) هو أيضا متمدن ، بمعنى هام من معانى المدنية ، لأنه يعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه — وما تراث القبيلة ، إلا مجموعة الأنظمة والعادات ، الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التى هذبتها ، أثناء جهادها فى سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض ، والاستمتاع بتلك الحياة . ومن المستحيل فى هذا الصدد ، أن يلزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس ، اسم (الهمج) ، أو (المتوحشين) ، فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ ، عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر عن حبنا العارم لأنفسنا ، لا أكثر ، وعن انقباض نفوسنا وانكماشها ، إذا ما ألفينا أنفسنا ، إزاء ضروب من السلوك ، تختلف عما ألفناه » . « ومن يدرى ، فلعلهم كذلك كانوا يوما متحضرين ، ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة ، لما لمسوه فيها من شقاء النفس » (٢) .

ويزيد اشبنجلر هذه القضية وضوحا ، حين يرى أن الفلاح إنسان

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

« خالد ، مستقل عن كل حضارة ، تخفى ذاتها داخل المدن ، وهو يتقدم الحضارة زمنا ، ويعمر أطول مما تعمر »(١) ، وأنه « إذا ما كانت المرحلة المبكرة زمنا ، تتميز بولادة المدنية من أحشاء الريف ، وإذا ما كانت المرحلة المتأخرة ، تتميز بالمعركة بين المدينة والريف ، فإن مرحلة المدنية ، هى مرحلة انتصار المدينة على الريف ، حيث تحرر نفسها من قبضة الأرض ، لكنها تتحرر ، لتنطلق إلى دمارها النهائى »(٢) .

ولنتذكر هنا ، أن اشبنجلر يقصد بالحضارة ـ الحضارة فى عصر ازدهارها ، وأنه يقصد بالمدنية ـ الحضارة فى عصر ذبولها (٣) .

إن الحضارة التى قامت فى المدينة عادة ، لم تكن إلا نموا طبيعياً للحياة فى القرية ، استجابة لتطور الحياة فى هذه القرية ، على نحو ما رأينا من قبل ، عند حديثنا عن (قصة الحضارة الإنسانية)(٤) ، ومن ثم « فالحضارات التى ندعوها بالعليا ، مدينة بالفضل ، فى أشياء جوهرية ، للحضارات التى نسميها بدائية »(٥) .

أو على حد تعبير ول ديورانت ، فى شىء من التفصيل : لقد خلق لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة ، صور الحضارة وأسسها ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية ، وضعت لنا أصولها ، فى هذه المرحلة : الصيد والسماكة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال . وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة ، نبتت جذورها ، فى هذه المرحلة : العشيرة

---

(١) أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربيـة ــ الجـزء الثانى (مرجع سابق) ، ص ٣٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص٣٨٧ .
(٣) ارجع الى ص ٢٣ من الكتاب .
(٤) ارجع الى ص ٢٣ ــ ٢٦ من الكتاب .
(٥) د. أحمد حمدى محمود : الحضـارة ــ رقم (١٥) من (كتـابك) ــ دار المعارف ــ ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة . وكذلك نرى الحرية والنظام ـ هذان المحوران المتضادان ، اللذان تدور حولهما المدنية كلها – قد تلاءما لأول مرة . فى هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون ، وبدأت العدالة ، وقامت أسس الأخلاق : تدريب الأطفال ، وتنظيم الجيش ، وتلقين الشرف والحشمة ، وقواعد السلوك والولاء ، وكذلك وضع أساس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه ، فى تأييد الأخلاق ، وتأييد المجتمع » .

« فنظام يخلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يشق ، من حياة الحيوان ، لينتهى إلى الإنسان الحكيم . فبغير هؤلاء (الهمج) » ، « لما كتب للمدنية النهوض »(١) .

ذلك أن هذا الإنسان البدائى ، كان هو نفسه ، الذى وضع أصول العلم الحديث ، فقد كان « يعيش فى الكهوف ، ويصارع العوامل الطبيعية ، ويقضى حاجاته الأساسية ، بطريقة بسيطة أولية ، فكان يحاول ويجرب ، فيصيب تارة ، ويخطىء تارة أخرى ، حتى تكونت لديه بمرور الزمن ، مجموعة من الخبرات العملية ، استطاع بواسطتها ، أن يضمن لنفسه ، ولأفراد أسرته ، استمرار الحياة على سطح الأرض ، فى مواجهة العوامل الطبيعية المختلفة » .

و « وهكذا ، تألفت عند الشعوب والقبائل ، مجموعة من المعارف » ، « يعدها مؤرخو العلم ، مقدمة ، لا غنى عنها ، لنشأة العلم »(٢) .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) الدكتور محمد على ابو ريان : الفلسفة ومباحثها ، مع ترجمة كتاب (المدخل الى الميتافيزيقا) ، لبرجسون — الطبعة الثانية — دار المعارف — ١٩٦٨ ، ص ٦٩ .

وقد كان (منطق الحاجة) ،هو الذى يقف دوما،وراء تطور الحضارة الإنسانية ، من أقدم عهودها ، وكان هذا المنطق ، هو الذى وجهها من البدائية إلى الزراعة إلى الصناعة .. ولم يكن يقف وراء هذا التطور ، تفوق قوم ساروا فى طريق الحضارة ، أو تميزهم على غيرهم . ولذلك كانت العلاقة علاقة موجبة ، بين (الحرب والمدنية) ، وذلك لأن (الحاجة) عند الحرب، تكون أشد منها فى أى وقت آخر،ومن ثم (ينشط) الإنسان — والمجتمع — لكسبها ، وإلا أصابه الفناء .

ولذلك لوحظ أن الحرب ، كانت هى «السبب المباشر فى معظم الاختراعات وتقدمها »[١] ، للسبب السابق ، ولسبب آخر يراه برتراند رسل ، هو أن مصدر الحرب ، ومصدر الإبداع ، واحد ، فى النفس البشرية، فإن «النشاط الحيوى نفسه ، الذى ينتج عنه كل ما هو خير ، تنتج عنه أيضا الحرب ، ومحبة الحرب » ، « فلقد كانت الامبراطورية الرومانية مسالمة وغير منتجة ، بينما كانت أثينا فى عهد بيركلس ، أكثر إنتاجا ، كما كان أهلها أشد الناس نزوعا إلى الحرب ، فى التاريخ ، تقريبا »[٢] .

وكما يربط برتراند رسل بين الحرب والمدنية ، يربط أرنولد توينبى بين المدنية والحرب ، فيرى أن « الحرب ما هى إلا وليدة المدنية »[٣] .

ولقد كانت الحرب — فى نظر لانسلوت هوجبن — من « الأسباب

---

(١) دكتور حسن حسنى أبو السعود (مرجع سابق) ، ص ١٨٦ .

(٢) برتراند رسل : نحو عالم أفضل — ترجمة ومراجعة دريني خشبة ، وعبد الكريم أحمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية للطبع والنشر ، ص ٧٧ .

(٣) أرنولد توينبى : الحرب والمدنية — ترجمة أحمد محمود سليمان — مراجعة الدكتور محمد أنيس — رقم (٥٠٧) من (الألف كتاب) — دار النهضة العربية — ١٩٦٤ ، ص ٨ .

الهامة لتقدم العلوم الكيميائية ، فى القرن السابع عشر »، حيث « أن الحروب تطلبت الحصول على أكبر قدر ممكن من البارود »(١) — ثم أدى التقدم فى فى هذه العلوم الكيميائية ، إلى التقدم فى علوم أخرى متصلة بها ، أدت كلها — فيما بعد — إلى (الثورة الصناعية) ، ومن ثم كانت (سخريته) من أولئك الذين يعتقدون فى الغرب، «عقيدة واسعة الانتشار، ترجع التقدم الفنى الرائع ، الذى صاحب حضارة شمال أوربا ، إلى تلك الصفات الخاصة ، التى تميز أهلها ، من طول فارع ، وشعر أشقر ، وعيون زرقاء ، وبعد عن روح الفكاهة » ، وذلك لأن « الظروف التى أحاطت بمغامرات الرأسمالية الأولى وأحلامها ، مما لا يقوم سندا كبيرا لمثل هذا الاعتقاد »(٢) .

ومع ذلك ، فإن هناك (صفات خاصة) ، لابد أن تتوفر فى الأمة ، لتقوم فيها حضارة ، وإن كانت هذه الصفات ، أبعد ما تكون عن تلك الصفات التى يراها الغربيون المتعصبون لجنسهم ، والتى ينتقدهم — من أجل ذلك — بسببها — واحد منهم ، هو لانسلوت هوجبن .

الدين والحضارة :

يرى اشبنجلر ، أن « الحضارة » « ليست » « شيئا عظيما فقط ، بل إنها بكليتها ، شىء لا يماثله أى شىء آخر ، فى هذا العالم العضوى . فهى النقطة الواحدة ، التى يسمو عندها الإنسان بنفسه ، فوق قوى الطبيعة ، ويصبح هو نفسه خالقا »(٣) .

---

(١) لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — الجزء الثانى — ترجمة دكتور حسين أحمد فهيم — مراجعة دكتور عبد الحليم منتصر — رقم (١٠١) من (الألف كتاب) — دار الفكر العربى — ١٩٦٣ ، ص ٨٣ .

(٢) لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — الجزء الثالث — ترجمة دكتور عطية عبد السلام عاشور ، ودكتور سيد رمضان هدارة — مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد — رقم (١٠١) من (الألف كتاب) — دار الفكر العربى — ١٩٦٣ ، ص ٦ .

(٣) أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثالث — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٢٢٧ .

ولا يوجد (نظام) ، يسمو فيه الإنسان بنفسه ، فوق قوى الطبيعة ، خير من الدين .

وقد تحدثنا كثيراً ، فى كتابينا الأولين من كتب السلسلة،عن هذه العلاقة الموجبة ، القائمة بين (الدين والحضارة) ، فى العصور الحضارية القديمة،من خلال تتبع العقيدة الدينية فى الحضارات القديمة،فى كتاب السلسلة الأول(١)، ومن خلال تتبع فكرة الألوهية ، فى هذه الحضارات القديمة ، فى الكتاب الثانى من كتب السلسلة(٢) .

وإذا كان محور الدين ، فى أية عقيدة دينية ، يقوم على عمل حساب (للمجهول) ، فى الحياة المادية التى يحياها الإنسان ، أو يقوم على أثر البعد الميتافيزيقى ، فى حياة الإنسان — والمجتمع — الفيزيقية ، فإن اشبنجلر يرد على الماديين أو الدهريين ، الذين يرون أن الدين — من هذه الزاوية — سبب من أسباب تخلف المجتمعات ، لا من أسباب تقدمها ، يرد بقوله : « إن الرعب من العالم ، لا شك ، أخص الأحاسيس الأولية ، إبداعا وخلقا،والإنسان ليدين لهذا الحس ، بأعمق الأشكال ، وأنضج الصور وأكملها » ، « والرعب من العالم ، أشبه بنغم سرى ، لا تستطيع كل أذن أن تدركه ، لكنه ينساب مع هذا ، من خلال شكل لغة كل عمل فنى أصيل ، ومن كل فلسفة باطنية ، ومن كل عمل هام خطير »(٣) .

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٥٢ — ٥٧ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الله ، والانسان المعاصر — الكتاب الثانى من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٧٧ ، ص ٣٥ — ٥٦ .

(٣) أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الأول — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ١٦٩ .

إن هذا الإيمان بالمجهول — جوهر أى دين — هو الذى يدفع الإنسان إلى اقتحام هذا المجهول ، لاكتناه أسراره ، ولو أنه اقتحام يكون حذرا ، لا يعرف التهور ، وهو — فى حذره هذا — يقتحم آفاق الحضارة ، وهو لا يدرى ، لأن الحضارة إنما تبنى على حسابات دقيقة ، لا على خبطات عشوائية .

كما أنه إذا كان (الموت) ، هو محور الفكر الدينى من قديم ، فإن هذا الموت ذاته ، هو أكبر دافع إلى بناء حضارة - أو بعبارة اشبنجلر ، « إن ماهو روحى ، هو فى كل حضارة ، دينى ، وله دين ، أوعى هذا الأمر ، أولم يعه ، فكونه موجودا ، وصائرا ومتطورا ومتحمسا لنفسه ، فهذا هو دينه »(١) .

« إن كوننا لا نحيا فقط ، بل إننا نعرف عن (أمور الحياة) ، هو نتيجة لوجودنا الجسدى ، فى عالم الضوء . لكن الحيوان يعرف الحياة فقط ، ولا يعرف الموت » . « ومن معرفتنا بالموت ، تتولد تلك النظرة إلى العالم ، التى نمتلكها ، بوصفنا أناسا ، ولسنا بحيوانات »(٢) .

إن الإحساس (بحتمية) الموت ، وبما لهذا الموت من مدلول ومعنى ، يخلق فى نفس الإنسان ، الإحساس (بقيمة) الحياة ، وبالتالى يدفعه إلى العمل والبناء ، وإلى التفكير الخلاق ، « (فأنا أعتقد) ، هى الكلمة العظمى ضد الخوف الميتافيزيقى ، وهى فى الوقت ذاته ، مجاهرة بالحب ، وإعلان عنه » (٣) — على حد تعبير أشبنجلر .

أو على حد تعبير الدكتور عماد الدين خليل : إن الموت « (واحد)

---

(١) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثانى (مرجع سابق) ، ص ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثالث (مرجع سابق) ، ص ١٢٥ .

من تحديات كثيرة ، فى عالم الإنسان ؛ من أجل أن تبعث فيه التوتر الدائم ، والطموح الأبدى ، للتغلب والتفوق والانتصار ، وتمنعه من أن يسلم نفسه للكسل والتراخى والاتكالية ، التى تقف على النقيض تماما ، مما يتطلبه التاريخ البشرى ، من حركة وفاعلية ، وردود مستمرة ، على التحديات القائمة »(١).

ويزيد من(عبقرية)الموت تلك ، أنه يأتى على غير موعد ، وأنه لا يعنى انتهاء الحياة ، بل هو يعنى حياة أخرى ، لا تنتهى - ومن ثم فهو يعنى تجدد الحياة ، على شكل آخر ، أكثر روعة .

ولو أن الموت أتى على موعد ، يعلمه الإنسان ، لتسرب الهم والقلق واليأس إلى نفسه ، فترة من حياته ، قبل أن يموت ، قد تطول وقد تقصر ، ولكنها فى الحالين ، تغدو تدميرا للحياة كلها ، أى تدمير ، وبالتالى هدماً للحضارة ، يأتى على ماشيد فيها ، فى فترة إقبالة الحياة ، ودفعتها البناءة .

ولو أنه كان نهاية للحياة ، وليس تجديداً لها . . لكان تحطيما للحضارة ، وللرغبة فى البناء والتشييد ، لأن الرغبة فى البناء والتشييد ، لا تنبع من نفسها ، يهددها شبح الموت ، الذى يحطم الحياة ، على هذا النحو المأساوى القاتل .

إن الموت كنهاية لحياة ، وبداية لحياة ، هو قمة التفاؤل فى حياة الإنسان ، والتفاؤل هو الوقود ، الذى يدفع بالنفس إلى البناء والتشييد ، وإلى إقامة الحضارة .

وكم كان الزعيمان المصلحان ، الشيخ جمال الدين الأفغانى ، والشيخ الإمام محمد عبده ، بعيدى النظر ، قبل اشبنجلر ومن نحا نحوه ، حين رأيا أن

(١) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

« الأصول الدينية الحقة» ، « تنشئ للأمم ، قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية »(١) .

ونحب أن ننبه هنا ، إلى أن ما نقصده بالدين ، ليس الدين السماوى بالضرورة ؛ فالأديان التى نمت فى ظلها الحضارات القديمة كلها ، كانت ديانات وضعية ، ولكنها فعلت فعلها فى دفع الشعوب التى آمنت بها فى طريق الحضارة والمدنية ، فقد كانت « الحضارات القديمة ، كلها (دينية)»(٢)، ومن ثم فالمقصود بالدين هنا ، هو « مجموعة الأفكار والآراء والمعتقدات ، التى تتعلق بالحياة وما بعد الحياة ، والتى يتوصل إليها (فيلسوف) عبقرى ، وقد تكون متفقة مع العقل والمنطق ، وقد لا تكون ، وقد تكون قريبة فى تصوراتها من الأديان السماوية ، وقد لا تكون »(٣) .

أو على حد تعبير الدكتور بولس يونا اليسوعى : إننا « عندما نتكلم عن الدين » ، « نقصد الدين كما عاشه الإنسان ، أى الدين ، لا كما أراده الله ، وكما يريد أن يكون، بل الدين كما فهمه وطبقه الإنسان » . « وبهذا المعنى، نستطيع أن نقول : إن الدين يكيف الحضارة ، كما أنه يتكيف بحسب الحضارة ، التى تحمله .

---

(١) جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى — الطبعة الأولى — دار الكتاب العربى — بيروت — لبنان — ذو الحجة ١٣٨٩ هـ — شباط (فبراير) ١٩٧٠ م ، ص ٦٢ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : التربية ومشكلات المجتمع — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ ، ص ١٠٧ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ ، ص ٣١ .

بعبارة أخرى ، كما أن الدين يحاول أن يغير الإنسان ، فإن الإنسان بدوره ، يغير الدين . والشاهد على ذلك ، تعدد الفرق الدينية ، فى جميع الأديان . المسيحية لها فرقها ، وللإسلام فرقه[١] .

وفى داخل هذا الإطار العام للدين كما نقصده ، تتوقف (قدرة) الدين على العطاء الحضارى ، على مدى اقتراب هذا الدين ، من (المثل الأعلى) ، الذى حدده الله سبحانه ، للإنسان ، ومدى تعبيره عن (فطرة الله ، التى فطر الناس عليها) ، على حد تعبير القرآن الكريم [٢] — تلك الفطرة التى نراها — على حد تعبير الشهيد سيد قطب — « فى هيكل الكون الهائل ، وفى محتوياته المنوعة ، الشاملة للأحياء والأشياء ، والأفلاك والأجرام ، والنجوم والكواكب ، والجليل والصغير ، والخافى والظاهر ، والمعلوم والمجهول .. » ، و « فى ضمير الزمان ، وأبعاد التاريخ »[٣] .

أى أن قدرة الدين على العطاء الحضارى ، تتوقف على مدى مسايرته (للقانون) الربانى ، الذى خلقه الله سبحانه ، وعليه يجب أن يسير الإنسان ، حتى يستطيع أن يكون — بحق — كما أراد له ربه — خليفة لله فى الأرض .

ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يسمو بنفسه فوق قوى الطبيعة ، على حد تعبير اشبنجلر ، الذى استهللنا به حديثنا عن (الدين والحضارة)[٤] ،

---

(١) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ١ (الأصول) — الطبعة الأولى — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١٥ ، ١٦ (من الاستهلال ، بقلم الأب الدكتور بولس نويا اليسوعى) .

(٢) قرآن كريم : الروم — ٣٠ : ٣٠ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الخامس (الأجزاء : ١٩ — ٢٥) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٧٦٠ .

(٤) ارجع الى ص ٣٢ من الكتاب .

إلا إذا ساروفق هذا (القانون) الربانى، الذى انتشل الإنسان، من (بهيمية) حياته الحيوانية ، إلى أفق الإنسانية الأرحب ، الذى صار به (خليفة) لله فى الأرض ، و « الحضارة تولد ، فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتنفصل هذه الروح ، عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية » ، كما أن « لكل حضارة طرازها الخاص بها ، وباستطاعة المرء أن يتلمس هذا الطراز ، فى كل إنجاز من إنجازاتها ، فنيا كان أم علميا أم دينيا » (١) — وهذا الطراز ، تحدد معالمـــه ، الشخصية الإنسانية التى أبدعته ، وسمات هذه الشخصية .

ومن هنا ، كان مايذهب إليه أشفيتسر، من أن هناك «حضارة أخلاقية، وحضارة لا أخلاقية »(٢) ، بحسب أخلاقية الإنسان — والشعب — الذى أبدع هذه الحضارة ، أو لا أخلاقية هذا الإنسان — أو الشعب .

وقد يقول قائل هنا: وأين مكان الدين، فى مثل هذه الحضارة اللاأخلاقية؟ وهل هناك دين لا أخلاقى ؟

والجواب بالإيجاب بطبيعة الحال ، لأن الدين لم يكن فى معظم حالاته من صنع الله ، بل كان من صنع البشر ، بمعنى أن الناس كانوا فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة ، يتصورون عالم ما وراء الطبيعة ، على نحو معين ، يتفق وظروف حياتهم، ومن ثم فإن « الكاهن لم يخلق الدين خلقا، لكنه استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسى ما للإنسان من دوافع فطرية

---

(١) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الأول — (مرجع سابق) ، ص ١٢ ، ١٣ — من مقدمة المترجم .

(٢) البرت اشفيتسر : فلسفةالحضارة — ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى — مراجعة الدكتور زكى نجيب محمود — المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر — مارس ١٩٦٣ ، ص ٣٧ .

وعادات ، فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألاعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان ، بما فيها من تساؤل لا ينقطع، وخوف وقلق وأمل، وشعور بالعزلة »(١) .

ولذلك اختلفت هذه التصورات الدينية ، من مكان إلى مكان ، على نحو ما سنرى فى الفصل التالى .

وأياً كان التصور الدينى القديم ، فقد كان هذا التصور ، نتيجة من نتائج المنجزات العلمية فى المجتمع ، ثم كانت بعد ذلك ، سبباً من أسباب زيادة هذه المنجزات العلمية ، فإن « العلم — كالأدب — بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية ، التى كانت تحدد مواقيت المحافل الدينية ، ثم صين فى كنف المعابد ، ونقل عبر الأجيال ، باعتباره جزءاً من التراث الدينى»(٢).

وحتى الديانات ، التى تنزلت من السماء ، على أيدى رسل ، لم تسلم من هذه البصمة البشرية ، وذلك من خلال ما دخلها من (تحريف) ، مقصود أو غير مقصود ، وبحسن نية أو بسوئها . . مما جعل كل دين من هذه الأديان ، فرقا ومذاهب شتى ، على نحو ما رأينا فى عبارة الأب بولس نويا اليسوعى السابقة ، فى تقديمه لكتاب أدونيس(٣) .

ومن هذه الديانات ، السماوية المحرفة ، أو غير السماوية ، على السواء ، ديانات قامت على تمجيد (عنصر) معين ، على سائر العناصر ، كما سنرى عند حديثنا عن الكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية والشنتية ، وغيرها من الديانات الوضعية ، على نحو ما سنرى ، وكما يمكن أن نرى بوضوح ، فى الديانة اليهودية ، من ديانات السماء ، المحرفة ، لتحقق هذا الغرض العنصرى .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ١١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
(٣) ارجع الى ص ٣٦ ، ٣٧ من الكتاب .

وإذا ما اعتدلت الديانة السماوية المحرفة قليلا ، فإنها تعتدل فى نفس الاتجاه ، كما تفعل المسيحية المحرفة ، التى ترى المؤمنين بالمسيح إلها - هم البشر ، الجديرون بالاعتبار ، وغير المؤمنين به . . كفارا ، لا يرقون إلى مرتبة الآدميين :

— « أما أعدائى أولئك ، الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، وإذ بحوهم قدامى »[١] .

وتاريخ المسيحية منذ ظهورها ، وحتى اليوم ، خير شاهد على مدى ترجمة ما ينسبه لوقا إلى السيد المسيح ، إلى واقع حى . . خاصة مع المسلمين .

فأين هذه الأخلاقيات المزعومة ، فى هذه المواقف الدينية ، مع غير معتنقى الدين — اللهم إلا إذا كانت هذه الأخلاق نسبية . . كأخلاق الأسبرطيين ؟

---

(١) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح التاسع عشر : ٢٧ .

الفصل الثانى

مولد الحضارة وأفولها

تقـــديم :

إذا كانت (الحضارة) درجة من الدرجات التى تصل إليها (الثقافة) فى تعقدها(١)، وإذا كانت (الثقافة) مرادفا (لشخصية) الأمة، أو (للشخصية القومية)(٢) - فإن معنى ذلك ، أن الحضارة ، كأى كائن حى، تولد، وتشب وتنمو ، ثم تتطرق إليها الشيخوخة ، ثم تموت ، وأنها فى عملية انتقالها هذا، من حالة إلى حالة ، رهن بمجموعة من (القواعد) ، التى تحكم الحياة . . أية حياة .

أو على حد تعبير اشبنجلر ، « إن الحضارات ، هى تراكيب عضوية ، وإن التاريخ ، هو مجموع سيرتها الشخصية »(٣) .

وليست هذه (التراكيب العضوية) ، التى تتألف منها الحضارة، بمعزل عن نفس (التراكيب العضوية) ، التى تتشكل منها (شخصية) الأمة ، صانعة الحضارة ، « فالشعب » — على حد تعبير اشبنجلر أيضاً — « وحدة نفس، والأحداث العظمى فى التاريخ ، لم تنجزها الشعوب ، بل إنها هى نفسها التى خلقت الشعوب »(٤) .

---

(١) ارجع الى ص ٢٩ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٢١ من الكتاب .
(٣) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضـــارة الغربيـــة ــ الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٢١٣ .
(٤) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضـــارة الغربية ــ الجـــزء الثانى (مرجع سابق) ، ص ٤٧٥ .

و « يرى اشبنجلر ، أن الحضارة تولد ، فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتنفصل هذه الروح،عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية »، ويرى « أن الحضارة تولد وتنمو ، فى تربة بيئة ، يمكن تحديدها تحديدا دقيقا،وأن الحضارة ككل كائن ، لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها ، وأنها تموت ، عندما تحقق روحها ، جميع إمكاناتها الباطنية،على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول،وأن الحضارة عندما تحقق هذه الأمور، وتستنزف إمكانات روحها، فى تجسيد هذه الإنجازات، تتخشب ، وتتحول إلى مدنية » .

ويرى « أن لكل حضارة تاريخا ، وأن هذا التاريخ ، هو تاريخ النفس الأولية ، للأمة ذات الحضارة » ، « فالحضارة تولد ، وهى تحمل معها صورة وجودها ، وهى على صلة رمزية عميقة » ، « بالمكان الذى فيه ، وبواسطته، تريد أن تحقق وجودها ،وهى تصارع وتناضل ، داخل المكان،الذى اختاره لها مصيرها »(١) .

ولنبدأ قصة الحضارة،من مولدها ، ونتابع مسيرتنا معها،حتى اندحارها.

مولد الحضارة :

إذا كانت الحضارة تعنى — باختصار — « إقامة مجموعة من الناس ، فى الحضر ، أى فى مواطن العمران » ، وإذا كان معناها قد اتسع ، « حتى صار شاملا لجميع أنواع التقدم والرقى الإنسانيين ، لأنهما لا يزدهران ، إلا عند المستقرين،فى مواطن العمران »(٢)، فإن الحضارة لا يمكن أن تكون بمعزل

---

(١) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ١٢ ، ١٣ — من مقدمة المترجم .
وننبه هنا الى رأى اشبنجلر فى المدينة ، الذى رددنا عليه ص ٢٣ من الفصل السابق .

(٢) عبد الرحمن حبنكة الميدانى : أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها — الطبعة الأولى — دار العربية ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م ، ص ١١ .

عن (الإنسان) ، فهو الذى وقف — ويقف — وراء أية حضارة ، فهو « الذى يبدع الحضارة ، ويكتشف أسرار الطبيعة ، وخواص العناصر ، ويصمم الآلات ، ويصنع الأجهزة ، ثم إنه بغير الإنسان ، تتعطل الأسلحة » ، « وبغير الإنسان ، لا تعدو الأجهزة العصرية ، أن تكون آلات صماء »(١) .

يضاف إلى ذلك ، أن « الحضارة ليست ذلك الكرسى الذى نجلس عليه ، والقلم الذى نكتب به ، والإناء الذى نشرب فيه الماء ، إنما هى (الشخص) ، الذى يستعمل هذا وذاك ، لغرض خاص ، وعاطفة خاصة ، وروح لا تنفك عنه ، لأى لحظة من اللحظات »(٢) .

ومن ثم فمولد (الحضارة) فى أى مجتمع من المجتمعات ، يبدأ بمولد (إنسان) ذلك المجتمع .

ومعنى مولد إنسان ذلك المجتمع ، هو أن (تتغير) الظروف من حول هذا الإنسان ، بحيث تخلق فى أعماقه ، تلك (الإيجابية) ، التى تدفعه إلى (البناء) . . فتكون الحضارة .

وتتمثل تلك (الإيجابية) - عند أشفيتسر - فى تلك النظرة (المتفائلة) إلى الحياة ، مما يجعل لهذه الحياة (قيمة) فى نظر الإنسان ، لأنه « من هذا الموقف من الكون والحياة ، ينشأ الدافع إلى رفع الوجود ، إلى أعلى مستويات القيمة ، بالقدر الذى يكون لنا تأثير فى تحقيق ذلك . ومن هنا ينشأ النشاط

---

(١) دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : الشخصية الاسلامية ، دراسة قرآنية — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٧ ، ص ١١ .

(٢) محمد الحسنى : الاسلام الممتحن — تقديم المفكر الاسلامى الكبير ، أبو الحسن الندوى — الطبعة الأولى — المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٠٩ .

الموجه إلى إصلاح أحوال الفرد الحية ، وأحوال المجتمع والدولة والإنسانية ، ومنه تنبثق أعمال الحضارة الخارجية ، وسيطرة الروح على قوى الطبيعة ، والتنظيم الاجتماعى الأعلى »(١) .

وهى - فى نظره - « تنشأ ، حين يستلهم الناس عزما واضحاً صادقا ، على بلوغ القصد ، ويكرسون أنفسهم ، تبعا لذلك ، لخدمة الحياة ، وخدمة العالم ، وفى الأخلاق وحدها ، نجد الدافع القوى ، إلى مثل هذا العمل . . . لكن لا سبيل إلى إقناع الناس بحقيقة توكيد الحياة الدنيا ، وبالقيمة الصادقة للأخلاق ، لا سبيل لإقناعهم عن طريق الدعوة والوعظ ، بل لا بد أن تنشأ العقلية الإيجابية الأخلاقية ، التى تمتاز بها هذه المعتقدات ، فى الإنسان نفسه ، كنتيجة لصلة روحية باطنة بالعالم . . ولن تتقدم الحضارة المستمرة الحقيقية ، إلا إذا وصلت غالبية الأفراد ، إلى هذه النتيجة »(٢) .

ومن هذا المنظور ، يرى ول ديورانت ، أن الحضارة لا تقتصر « على جنس دون جنس ، فقد تظهر فى هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك » ، « فليس هو الجنس العظيم الذى يصنع المدنية ، بل المدنية العظيمة ، هى التى تخلق الشعب » . « فلو تهيأت لجنس بشرى آخر ، نفس الظروف المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هى ذى اليابان فى القرن العشرين ، تعيد تاريخ انجلترا ، فى القرن التاسع عشر »(٣) .

ولم يجد الباحثون صعوبة فى الوصول إلى (مواصفات) هذا الجو العام الذى لا بد أن يحيط بالإنسان ، حتى يتحول إلى إنسان (صانع للحضارة .

فول ديورانت يرى أن الحضارة « تبدأ ، حيث ينتهى الاضطراب

---

(١) البرت أشفيتسر (مرجع سابق) ، ص ٧٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥ ، ٦ .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ٦ .

والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لاتنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه ، للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها . والحضارة (فى نظره)، مشروطة بطائفة من العوامل ، هى التى تستحث خطاها ، أو تعوق مسراها ، وأولها العوامل البيولوجية » ، « وثانيها العوامل الجغرافية » ، « والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك »(١) .

إلا نه « ما هذه العوامل المادية والبيولوجية ، إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لاتكون مدنية ، ولا تنشئها من عدم ، إذ لابد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلابد أن يسود الناس نظام سياسى ، مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف ، حداً يدنو به من الفوضى ، ولا مندوحة كذلك، عن وحدة لغوية، إلى حد ما » ، « ثم لا مندوحة كذلك ، عن قانون خلقى ، يربط بينهم » « ولو انعدمت هذه العوامل - بل ربما لو انعدم واحد منها - لجاز للمدنية ، أن يتقوض أساسها »(٢).

ويزيد ول ديورانت، هذه (العموميات) ، التى أوردها فى الجزء الأول ، من دراسته الممتعة ، عن (قصة الحضارة) — يزيدها (تفصيلا) ، عند دراسته للحضارة اليابانية ، حيث يرى أن « أول عناصر هذه المدنية ، هو العمل » ، « وثانى عناصر المدنية ، هو الحكومة — أعنى تنظيم الحياة والمجتمع ، ووقايتهما ، بفضل القبيلة والأسرة والقانون والدولة » .

« وثالث عناصر المدنية ، هو الأخلاق — العادات وآداب السلوك ، والضمير ، والإحسان — فالأخلاق قانون ينشأ فى باطن النفس ، ويولد

(١) المرجع السابق ، ص ٣ ، ٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦ ، ٧ .

فيها آخر الأمر ، تمييزا بين الصواب والخطأ » ، « وبغير ذلك القانون ، تنحل الجماعة أفراداً ، وتسقط فريسة لدولة أخرى ، يكون فيها التماسك الاجتماعى » .

« ورابع عناصر المدنية ، هو الدين — أى الانتفاع بعقائد الإنسان ، فى القوى الخارقة للطبيعة ، للتخفيف من الآلام ، والسمو بالشخصية الإنسانية ، وتقوية الغرائز الاجتماعية ، والنظام جتماعى » .

« وخامس عناصر المدنية ، هو العلم — وهو النظر الصافى ، والتسجيل الصادق ، والاختبار المحايد ، وجمع المعرفة شيئاً فشيئا ، بحيث تكون من الصدق الموضوعى ، بما يمكننا من التنبؤ بمجرى الطبيعة فى المستقبل ، وضبطه » .

« وسادس عناصر المدنية ، هو الفلسفة — وهى محاولة الإنسان إن يفهم شيئا ، عن الوجود فى مجموعه » .

« وسابع عناصر المدنية ، هو الأدب — وهو نقل اللغة على تتابع الأجيال ، وتربية النشء ، وترقية الكتابة ، وإبداع الشعر والمسرحية » .

« وثامن عناصر المدنية ، هو الفن — وهو تجميل الحياة ، بالألوان والأنغام والصور ، التى تشرح الصدور »(١) .

أى أن (الحضارة) تبدأ ، حيث تبدأ (الثقافة) فى التبلور ، وحيث يتحقق الاستقرار للمجتمع ، وحيث يشرع كل إنسان — بعد ذلك — فى النهوض بحياته — فينهض المجموع ، بنهوض الفرد .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الخامس (الشرق الأقصى) (اليابان) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥١ ، ص ١٩٩ — ٢٠٣ .

ولعل ذلك، هو سر تعريف اشفيتسر للحضارة ، بأنها « هى التقدم الروحى والمادى ، للأفراد والجماهير ، على حد سواء »(١) ، وقوله : إنه قد تبين له «فى ختام المطاف ، أن الحضارة فى جوهرها ، أخلاقية » (٢) ، وأن الروح الأخلاقية ، هى الموجهة لجميع جوانب الحضارة (٣) — هذا على أن نفهم الأخلاق بمعناها العام — أى ما (تواضع) الناس عليه ، من علاقات ، عامة وخاصة ، بغض النظر عن اقتراب هذه الأخلاق ، من مثلها الأعلى — أى الأخلاق بمعناها النسبى ، لا بمعناها الدينى .

ولذلك اختلفت (الخطوط العامة) لهذه الحضارة ، من مجتمع إلى مجتمع، باختلاف هذه (الخطوط الأخلاقية) العامة ، لأن الحضارة - كالأخلاق - إن هى إلا « نتائج ملائمة ، لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد ، والعوامل النفسية المهيمنة عليها»(٤) .

وسوف - نرى عند دراستنا للحضارات القديمة فى الفصل التالى (الثالث) - مدى هذه العلاقة بين الحضارة ، والبيئة التى نشأت فيها،لأنها جوهر القضية ، كما سنرى من خلال الدراسة كلها .

أفول الحضـــارة :

ومثلما وصل الباحثون — بسهوله — إلى (عوامل البناء) فى الحضارة، أو (الجو العام) الذى تولد فيه وتنشأ وتنمو وتزدهر .. وصلوا — بنفس السهولة — إلى (عوامل الهدم) فى الحضارة ، أو (الجو العام) ، الذى تموت فيه .

(١) البرت اشفيتسر (مرجع سابق) ، ص ٣٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ .
(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى (مرجع سابق) ، ص ٢١ .

ويرى ول ديورانت، أن « البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر فى وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجم بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغــابة المتلبدة ، فى البلاد الاستوائية ، تحاول أشجارها على الدوام ، أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر ، وتقاوم جهوده ، ولا تعترف فقط بهزيمتها ، بل تظل قرونا طوالا ، صابرة تترقب ، حتى تتاح لها الفرصة ، لاستعادة ما فقدته من أرض ، بفعل الإنسان المتحضر »(١) .

و (ظاهر) كلام ديورانت ، هو أن الحضارة تنهدم ، بفعل البربرية المحيطة بها ، ولكن (جوهر) كلامه ، هو أن هذه الحضارة ، تنهدم من الداخل أولا ، فيكون انهدامها الداخلى ، مغريا للبربرية المحيطة بها ، أن تنقض عليها ، فإنه « يندر أن يأتى الموت إلى مدنية ، من خارجها ، بل لابد للانحلال الداخلى ، أن يفت فى نسيج المجتمع أولا ، قبل أن يتاح للمؤثرات أو الهجمات الخارجية ، أن تغير جوهر بنائها ، أو أن تقضى عليها قضاء أخيراً » (٢) .

أى أن الحضارة ، تحمل بين طياتها ، عوامل فنائها على نحو ماسنرى فيما بعد .

وإذا كانت الحضارة تولد ، حيث يولد الإنسان ، متفائلا ، محبا للحياة ، متمسكا بها ، فإن الحضارة تنتهى ، حيث (ينتهى) ذلك الإنسان ، بحلول التشاؤم فى حياته محل التفاؤل ، وبضيقه بالحياة ، ضيقاً يتمثل فى ذلك

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الأول (الشرق الأدنى) — ترجمــة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجــزء الخامس (الشرق الأقصى) (اليابان) (مرجع سابق) ، ص ١٦٥ .

(الانحلال) ، و (التحلل) من كل القيم الإنسانية ، التى يحرص عليها ، أولئك الذين يحبون الحياة حقاً .

ويرى أرنولد توينبى ، المؤرخ البريطانى المشهور (١٨٨٩--١٩٧٥م)، أن « انحلال الحضارات ، يرافقه فساد ، يدب فى أرواح الناس ، وتغيير جذرى ، يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها ، ويحل محل الصفات الباهرة ، والقوى المبدعة ، التى كانت تزخر بها ذواتهم ، فى دور النمو الحضارى ، ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة . . وفى هذا الدور ، يتعرى الفسادالروحى أيضاً ،عن فوضوية ، تعم الأخلاق والعادات ، وتخاط يسود الآداب والفنون واللغات ، ومحاولات عقيمة ، للتوفيق بين الديانات المختلفة ، وتسعى الأقلية المسيطرة ، فى حالات معينة ، إلى أن تفرض بالقوة على رعاياها ، فلسفة خاصة ، أو ديناً مختاراً ، ولكنها تخفق فى محاولتها هذه ، باستثناء حالة شاذة ، تتمثل فى الكيفية (طريق القوة أو التساهل) ، التى انتشرت بها الدعوة الإسلامية ، بين الأمم المغلوبة »(١) .

وبعبارة أخرى : إن الحضارة تولد ، فى حالة يكون فيها البناء الاجتماعى (الثقافى) قد تكامل ، وصارت (الأمة) مدفوعة — فى ضوء تكامله — إلى أمام ، لتحقق أهدافاً عزيزة عليها ، فتحقق تلك الأهداف ، وتحقق معها — وعلى طريقها — وبجانبها — حضارة .

وعندما يصل التقدم الحضارى إلى ذروة معينة ، يبدأ (الاختلال) فى هذا البناء الاجتماعى ، الذى شيد فى مراحل الكفاح الأولى ، إما بتغلب

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (مرجع سابق) ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

فرد على الأمة ، واستبداده بها ، وإما بتغلب طبقة من الطبقات ، على سائر الطبقات ، واستئثارها — دونها — بالمال أو النفوذ ، أو كليهما معاً ، وإما بسيادة (الترف) جميع الأفراد والطبقات ، نتيجة للتقدم الحضاري الذي تحقق ، كما هو الحال في الحضارة الغربية المعاصرة ، فيبدأ هذا الترف ، ينهش في خلايا الأمة الحية ، حتى يقضي عليها تماما .

أي أن الحضارة التي شيدت ، تبدأ في الأفول ، عندما تتغير الأحوال من حول الإنسان ، فيجهز القلق على أحشائه ، لأسباب كثيرة ، قد تكون (الرفاهية) واحدا منها ، ومعها ضمور الروح ، وفساد الخلق ، فقد « تحرز أمة من الأمم ، سبقا حضارياً ، في إحدى هذه المراتب ، في حين أنها قد تكون في أقصى درجات التخلف الهمجي ، بالنسبة إلى غيرها من المراتب »(١) .

كما أنه « كثيراً ما تصاب الإنسانية بويلات جسام ، نتيجة لسبق حضاري مادي ، مجرد عن حضارة خلقية وروحية ، فيكون هذا السبق المادي ، وسيلة للطغيان ، وخراب العمران ، والإفساد في الأرض ، وحلول الشر المستطير .

وبذلك تنقلب الصورة الحضارية المادية ، إلى وجه همجي متجهم كالح ، مفعم بالخسة واللؤم والشر والفساد ، وذلك لأن الغرائز النفسية في الناس ، إذا بقيت على حالتها الهمجية ، ووجدت بين يديها الوسائل المادية المتقدمة ، فإنها ستحرض الناس على استخدام هذه الوسائل المتقدمة ، في السطو والظلم والعدوان ، والتكالب على الشهوات واللذات ، استخداما مفرطا في الهمجية ، بعيداً عن كل معنى حضاري كريم »(٢) .

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني (مرجع سابق) ، ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

بين خطى البـــدء والنهاية :

كان العلامة العربى المسلم ، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ = ١٣٣١ — ١٤٠٥ م) ، أول من ألقى الضوء على مولد الحضارة وأفولها ، على ذلك النحو الرائع ، الذى وضحه من بعده ، علماء الغرب المعاصرون ، كما كان أول من ألقى الضوء على (مسار) الحضارة ، منذ يوم مولدها الأول ، وحتى يوم وفاتها — أو أفولها — وغروب شمسها .

ولم يسم ابن خلدون الحضارة ، باسمها المعاصر (الحضارة) ، وإنما أطلق عليها لفظ (العمران)، وجعل من هذا (العمران) ، علما مستقلا ، قائما بذاته ، ورآه « المقياس الحقيقى لفهم التاريخ والمجتمعات الحاضرة ، والتنبؤ بمستقبلها »[1] .

وإطلاق اسم (العمران) على الحضارة ، على ذلك النحو الخلدونى ، أكثر دقة وروعة ، وأكثر تعبيراً عن الحضارة ، من الاسم المعاصر لها (الحضارة) ، إذ أن الحضارة — كما سبق فى الفصل الأول — مشتقة من الحضور[2] ، أى من التجمع الإنسانى ، حيث يؤدى هذا التجمع إلى العمران ، على نحو ما رأينا هناك .

ومن ثم فالحضارة مأخوذة من مجرد اجتماع القوم — أى من (مقدمة) الحضارة ، بينما العمران مأخوذ من (نتيجة) هذا الاجتماع ، وما أدى إليه، إذ قد يؤدى اجتماع القوم إلى تقدم ورقى ، ولكنه قد يؤدى أيضاً ، إلى تخلف وانهيار .

ويرى ابن خلدون - فى مقدمته تلك — أنه « على مقدار عمران البلد ،

---

(١) ابن عمار الصغير : التفكير العلمى عند ابن خلدون — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر ، ص ١٠ .

(٢) ارجع الى ص ٢٢ ، ٢٣ من الكتاب .

تكون جودة الصنائع ، للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة مايطلب منها ، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة»(١) ، كما يرى أن« الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها ، في الكثرة والقلة ، والحضارة والترف ، تكون نسبة الصنائع ، في الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش ، فمتى فضلت أعمال أهل العمران على معاشهم ، إنصرفت إلى ما وراء المعاش ، من التصرف في خاصية الإنسان ، وهى العلوم والصنائع »(٢) .

وبذلك سبق ابن خلدون ، كل الدراسات المعاصرة أيضاً ، في تنبهه إلى « تلك العلاقة العضوية » ، القائمة بين العمل أو العمران (أو الحضارة) ، وبين ازدهار العلوم والمعارف »(٣) ، كما رأيناه من قبل يسبقها ، في تحديد العلاقة بين اجتماع الناس ، وإمكانية تحقيقهم حضارة معينة ، على أرض معينة ، يجتمعون عليها .

وفي الفصل الأول ، رأينا أن حضارة اليوم المعقدة ، ليست إلا تطوراً طبيعياً ، لحضارة الإنسان الأول ، في عصوره البدائية الأولى ، وأن تطور الحضارة وتعقدها على هذا النحو ، إنما جاء نتيجة لتراكم المعارف ، الناتجة عن سعي الإنسان الدائم ، منذ فجر الحياة الإنسانية ، لفهم الطبيعة المحيطة به ، والسيطرة عليها ، وتوجيهها لخدمته ، وتحقيق أهدافه(٤) .

وهناك أيضاً ، رأينا ما يراه ألبرت أشفيتشر ، من أنه « يدخل في مجال

---

(١) مقدمة العلامة ابن خلدون — المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٤٠٠ ، ٤٠١ — من الفصل السابع عشر ، من الباب الخامس ، من الكتاب الأول (في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٤ — من الفصل الثالث ، من الباب السادس ، من الكتاب الأول (في أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة) .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : التربية ومشكلات المجتمع (مرجع سابق) ، ص ١٣٠ .

(٤) ارجع الى ص ٢٤ — ٣٢ من الكتاب .

الحضارة ، ثلاثة أنواع من التقدم : التقدم فى المعرفة والسيطرة ، والتقدم فى التنظيم الاجتماعى للإنسانية ، والتقدم فى الروحية » ، وأن « الحضارات تتألف من مثل عليا أربعة : المثل الأعلى للفرد ، والمثل الأعلى للتنظيم السياسى والاجتماعى ، و المثل الأعلى للتنظيم الاجتماعى والروحى والدينى ، والمثل الأعلى للإنسانية ، بوصفها كلا »[1] .

كما رأينا أن كل حضارة ، إنما هى نتيجة لتطور الثقافة ، ومن ثم فهى (بنت) بيئة بعينها ، ومن ثم - أيضا - فإنه « لابد أن تكون المظاهر الحضارية لكل أمة ، نتائج ملائمة لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد والعوامل النفسية المهيمنة عليها »[2] ، كما لابد أن يكون « لكل من هذه الحضارات ، تاريخ شيق ، يدل على مدى ما بلغته شعوبها من الرقى ، الفكرى والاجتماعى والروحى»[3].

وهذه الحضارة بوصفها شيئاً (ينمو) فى بيئة بعينها ، ينطبق عليها ما ينطبق على كل كائن حى نام ، فى هذه البيئة ، من معنى النمو وسماته ، بمعنى أنها — كغيرها من الكائنات الحية فى هذه البيئة - تبدأ (طفلة)، ثم تتدرج فى مدارج (الصبا) و (الشباب) ، حتى تصل إلى دور (اكتمالها) ، قبل أن يصيبها (الذبول) ، وتجهز عليها (الشيخوخة) ، وتتحول إلى متحف (التاريخ) ، وتتحول — معه - إلى (بيئة) أخرى ، تكون ظروفها مهيأة لاستقبالها ، (وليدا) جديداً ، يواصل دورة حياته من جديد فيها ، على نحو جديد . وهكذا .

فالحضارة الغربية الحديثة ، التى تبهرنا بروعتها ، ليست — على حد تعبير المرحوم أحمد أمين — إلا « بعض نتاج الصين » و « بعض نتاج الهند والعرب »،

(١) البرت اشفيتسر (مرجع سابق) ، ص ٤٠٦ .
(٢) عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى (مرجع سابق) ، ص ٢١ .
(٣) فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر ، ص ز (من المقدمة) .

« كما أنها بعض نتاج فلسفة اليونان وعلمهم ، وفلسفة المحدثين وعلمهم » ، وهى « مدينة للنوابغ من جميع أنحاء العالم » ، « فتسميتها بالحضارة الغربية ، تسمية من احتل أعلى طبقة فى البناء ، الذى شيده العالم منذ نشأته ، واشترك فى تشييده النوابغ من كل صقع ، ومن كل جنس . وتسمية البناء باسم سكان الطبقة العليا ، تسمية تعسفية ، أو اصطلاحية ، أو هى كالبطاقة ، توضع على السلعة ، للتعريف بها »(١) .

ولا يقف الأمر عند حد الحضارة الغربية المعاصرة ، بل إنه يكاد ينطبق على كل حضارة ، فقد « اعتمد المصريون ، على البابليين والكلدانيين والفينيقيين ، واعتمد الإغريق على المصريين ، كما اعتمد الرومان والهنود على من سبقهم من الإغريق وغيرهم ، وأخذ العرب عن هؤلاء ، واقتبست أوربا من العرب ، ومن الذين سبقوهم »(٢) .

ويعتبر (الأخذ عن الغير) فى مجال الحضارة ، بمثابة (تجديد) لهذه الحضارة ، لا يقتصر « على العوامل الداخلية فى كل أمة ، بل كثيراً ما تأتى الأفكار من الخارج ، نتيجة لاتصال الأمم ، بعضها ببعض » ، إلا أنه « يشترط لاندماج هذه العناصر اندماجا دائماً ، أن تكون ملائمة لطبيعة الأمة العقلية ، قابلة الامتزاج بثقافتها الأصلية »(٣) .

أى أن (الأساس) فى عملية (البناء الحضارى) ، أو الانطلاق فى طريق الحضارة ، هو (النمو الذاتى) - أى (تنمية) ذات الأمة ، أو نموها ،

---

(١) احمد امين : « الشرق والغرب » — **فيض الخاطر** — الجزء السادس — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٥ ، ص ٨٧ .

(٢) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب — مكتبة مصر — ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ .

(٣) اسماعيل محمود القبانى : دراسات فى تنظيم التعليم بمصر — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٨ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ (من محاضرة القاها سنة ١٩٤٦ بعنوان : مركز مصر الثقافى فى الوقت الحاضر) .

بحيث تحس (بالحاجة) إلى العناصر الحضارية الأجنبية ، المتفقة مع شخصيتها .

والتاريخ الطويل للحضارة الإنسانية ، على نحو ما سنرى من أمثلة فى الفصل التالى ، يوضح بجلاء ، أنه ما من أمة تقدمت حضاريا فى الماضى ، إلا وكان تقدمها يعود بالدرجة الأولى ، إلى إحساسها (بالحاجة) إلى حل مشكلات تواجهها على أرضها ، و (سعيها) لحل هذه المشكلات ، (واعية) بإمكانياتها (الذاتية) ، وبمعطيات بيئتها التى تعيش فيها ، ثم تأتى (الاستعانة) بتجارب الآخرين فى هذا المجال . . على الطريق ، بهدف (تعميق) هذه الإمكانيات الذاتية ، وزيادة فعاليتها .

ونفس التاريخ الطويل للحضارة الإنسانية ، يوضح بجلاء أيضاً ، أنه ما من أمة انتكست حضاريا بعد تقدم ، إلا وكان سر انتكاستها ، هو أخذها (بالشكليات) ، والتفاتها عن إمكانياتها الذاتية ، وتقليدها للتجارب الأخرى ، لا (لحاجة) تدفعها إليها ، ولكن لمجرد تقليدها ، مهما كان دافعها إلى هذا التقليد .

كما أن تجارب العالم الثالث المعاصرة ، توضح ذلك كله بجلاء أيضاً . إنها بلاد ذات حضارة قديمة فى معظمها ، ولكن انتكاسة ما أصابتها ، فتخلفت ، ثم زاد تخلفها بعد الثورة الصناعية ، بزيادة عنصر جديد ، هو الاستعمار الغربى ، الذى تبع هذه الثورة الصناعية . فلما أرادت أن تنهض ، كان (النموذج الغربى) للتقدم ، نصيب أعينها ، مما باعد بينها وبين ما تنشده من تقدم ، لأنها نسيت أن « المدنية الغربية » هى نتاج نمو سياسى واقتصادى وثقافى ، وتطور على طول المدى ، مما لم تعهده البلدان المتخلفة ، والقيام بعملية نقل مفاجئة ، تنقل بها ثمار المدنية ، إلى تربة مختلفة ، ليس بالمهمة

السهلة البسيطة ، كما يبدو الحال فى أول وهلة،(١) .

والغريب أن بلادا غير أوربية ، استطاعت أن تتقدم ، برغم تخلفها ، وضعف إمكانياتها ، لأنها وضعت نصب أعينها ما رأيناه من قبل، من التفات إلى الذات - فى الوقت الذى أخفقت بلاد أخرى فى تحقيق هذا التقدم ، برغم قدم عهدها به ، كمصر ، لأنها لم تلتفت إلى ذاتها ، بقدر التفاتها إلى الحضارة الغربية ، التى وضعتها نصب عينيها ، برغم ما كان لمصر من حضارة عريقة ، فى العصور القديمة والوسيطة ، والحديثة أيضاً .

لقد « بدأت مصر تضع أقدامها على طريق التقدم ، منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ، سابقة فى ذلك كلا من اليابان والاتحاد السوفيتى والصين .

وفى الوقت الذى وصلت فيه كل من البلاد الثلاثة ، إلى التقدم الذى كانت تنشده ، بقيت مصر كما هى ، تتخبط ، ثم إذا بها - مع مطلع الستينات - تسير فى طريق عكسى، فإذا بها تتخلف، بدلا من أن تتقدم ، حتى صارت الحياة فيها عبئاً على الأحياء ، وحتى صارت الهجرة منها إلى الخارج ، سواء الهجرة المؤقتة أو الدائمة ، أمرا عادياً فى حياة أبناء مصر ، بعد أن كانت الهجرة — عبر تاريخ مصر الطويل — إلى مصر ، من جميع أنحاء العالم .

وقد تقدمت البلاد الثلاثة ، ومن قبلها تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن كلا منها سار فى طريق التقدم ، مراعياً فى سيره ، ظروفه الخاصة ، وملامح شخصية القومية ، بينما لم تستطع مصر تحقيق التقدم ، لأنها ظلت حتى اليوم — تتطلع إلى النماذج الموجودة ، فى البلاد المتقدمة .

---

(١) هيوسيتون واطسون : ثورة العصر ، بحث فى فلسفة السياسة والاجتماع — الكتاب الأول من سلسلة (كتب الناقوس) — ترجمة محمد رفعت — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٠٥ .

والغريب أن كل بلد من البلاد الثلاثة ، مضافا إليها الولايات المتحدة ، قد بدأت تقدمها ، « مأخوذة بالتقدم الأوربى » ، « ثم سرعان ما اكتشف كل بلد من هذه البلاد ، أن النموذج الغربى يؤدى إلى تقدم مادى ، ولكنه لا يؤدى إلى تقدم حضارى ، بل على العكس، يؤدى إلى (زلزلة) لقيم . يراد لها أن تثبت، ومن ثم سعت كل منها إلى (تعديل) الحضارة الغربية المأخوذة ، بحيث تناسب (التربة) القومية .

أى أن كل بلد من البلاد التى تقدمت بالفعل ، بدأ (مقلداً) ، ثم انتهى إلى البحث عن (الأصالة) . . فكان له ما أراد من تقدم .

أما مصر ، فقد بدأت فى اتجاه مضاد » ، « حتى صارت اليوم (مسخا) مشوها ، لا هى إلى تراثها الحقيقى تنتمى ، ولا هى إلى الحضارة الغربية استطاعت أن تصل »(١) .

أى أن (الأصالة) هى (بدء) الحضارة ، و (التقليد) هو (نهايتها) ، وبين خطى البدء والنهاية ، تمر الحضارة — ككائن حى — بأطوار ، تختلف من حضارة إلى حضارة ، حسب ظروف كثيرة ، تؤثر فى الحضارة ، وتحدد شكلها ومسارها ، تحدثنا عنها فى مطلع هذا الفصل ، عند حديثنا عن (مولد الحضارة)(٢) .

البعث الحضارى :

يقول الماركسيون وغيرهم، من أصحاب التفسير (المادى) للتاريخ ، « بحتمية سقوط الدول والحضارات ، بشكل أو بآخر »(٣) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ٤٨٤ — ٤٨٦ .

(٢) ارجع الى ص ٤٤ — ٤٧ من الكتاب .

(٣) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (مرجع سابق) ، ص ٢٥٥ .

وهم عندما يقولون بذلك ، إنما يقولون به ، من وجهة النظر التى عرضناها من قبل ، والتى ترى أن الحضارة كائن حى نام ، ينطبق عليها ، ما ينطبق على كل كائن حى[١] .

وإذا كان هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) بنى نظريته تلك ، على أساس أن « الناس والمجتمعات والدول ، فى ممارستهم وتجاربهم التاريخية ، كأدوات مرحلية ، يستخدمها العقل الكلى ، فى ظروف زمنية محددة »[٢] — أى على (أساس سنة التطور) الطبيعى فى الحياة ، فإن تلميذه ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، « يخضع حركة التاريخ ، بدولها وحضاراتها وتجاربها ، لحتمية تبدل وسائل الإنتاج ، وانعكاسه على (الظروف)، وأن كل وضع تاريخى ، مآله الزوال، بمجرد هذا التبدل الديناميكى الدائم .. ثم مايلبث ماركس، أن يقع فى تناقض أساسى مع نظريته ، عندما يقرر (الدوام) و (الثبات) ، لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، حيث لا زوال بعدها »[٣] .

ومن ثم يسلم هؤلاء (بالسقوط) الحضارى ، وينكرون (البعث) الحضارى بعد هذا السقوط ، ويبنون السقوط والبعث معا ، على أساس مادى بحت ، قد يختلفون فى تفصيلاته ، ولكنهم يتفقون على (خطوطه) العريضة ، برغم ما يقول به هيجل، من (عقل كلى)، يرتب هذه (التجارب) الحضارية ، بإسقاطها هنا .لتبدأ من جديد.. هناك .

والعقل الكلى فى فكر هيجل ، الغربى الأصل والفكر ، هو هو الله، فى الفكر الدينى السماوى ، وإن كان الفرق كبيرا بين هذا العقل الكلى فى (الفلسفة المثالية) ، التى بلورها أفلاطون قبل الميلاد بقرون ،وأعاد إليها

(١) ارجع الى ص ٥٣ من الكتاب .

(٢) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (المرجع السابق) ، ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

الحياة بعده ، هيجل، فى القرن التاسع عشر، وبين الله سبحانه وتعالى ، لأن هذا العقل الكلى، ليس (إلها) يحكم الكون ، كما يقول بذلك الفكر الدينى، ولكنه مجرد (منظم) ميكانيكى ، للحياة على هذا الكون .

ومن ثم فالعقل الكونى ، إله مصنوع ، صنعته عقول مادية ، لا تؤمن بغير المادة .

ومن ثم — أيضا — لابد أن يتناقض مثل هذا التفسير للحضارة ، مع التفسير الدينى لها ، كما نراه من خلال (كتب) الدين ، أو من خلال أفكار المتدينين .

ولم يكن غريبا ، أن يرى رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) ، وهو من المتأثرين كثيرا بالحضارة الغربية ، وممن عاشوا فى (قلبها) ، أيام انبهار الشرق بها ، فى مطلع القرن التاسع عشر — لم يكن غريبا رغم ذلك ، أن يرى أن « علامة التمدن ، ودلائل العظم » ، « ثلاثة أشياء ، وهى : حسن الإدارة الملكية(١) ، والسياسة العسكرية ، ومعرفة الألوهية »(٢) ، وأن يرى أن هناك مقومتين « لكمال التمدن والعمران : (احداهما) تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية ، والفضائل الإنسانية ، التى هى لسلوك الإنسان فى نفسه ومع غيره ، مادة تحفيظية ، تصونه عن الأدناس ، وتطهره من الأرجاس ، لأن الدين يصرف النفوس عن شهواتها ، ويعطف القلوب عن إرادتها ، حتى يصير قاهرا للسرائر ، زاجراً للضمائر ، رقيبا على النفوس فى خلواتها ،

---

(١) اى ادارة شئون البلاد — وقد صارت هذه الادارة بعده بقرن من الزمان تقريبا ، علما له اصوله وقواعده .

(٢) كتاب مناهج الألباب المصرية ، فى مباهج الآداب العصرية » — **الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى** — دراسة وتحقيق محمد عمارة — الجزء الأول (التمدن والحضارة والعمران) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٣ م ص ٣٨٤ .

نصوحا لها فى جلواتها . فبهذا المعنى ، كان الدين أقوى قاعدة ، فى صلاح الدنيا واستقامتها » .

« و **الواسطة الثانية** : هى المنافع العمومية ، التى تعود بالثروة والغنى ، وتحسين الحال ، وتنعيم البال » ، « كالزراعة والتجارة والصناعة »(١) .

ومن المنطقى أن يكون جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) ، أكثر من الطهطاوى إلحاحا على هذه الفكرة ، وتأكيدا لها ، فيرى أن تقدم الأمم يقوم على أربعة أمور ، « **الأول** : صفاء العقول من كدر الخرافات ، وصدأ الأوهام » ، و « **الأمر الثانى** ، أن تكون نفوس الأمم ، مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه » ، و « **الأمر الثالث** ، أن تكون عقائد الأمة ، وهى أول رسم ينقش فى ألواح نفوسها ، مبنية على البراهين القويمة ، والأدلة الصحيحة » ، و « **الرابع** ، أن يكون فى كل أمة طائفة ، يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، لا ينون فى تنوير عقولهم ، بالمعارف الحقة ، وتجليتها بالعلوم الصافية ، ولا يألون جهدا فى تبيين طرق السعادة لهم ، والسلوك بهم فى جوادها ، ثم طائفة أخرى ، تقوم على النفوس ، تتولى تهذيبها ، وتثقيف أودها »(٢) .

ويرى جمال الدين الأفغانى ، شيئا قريبا مما نراه نحن اليوم ، بعده بحوالى قرن من الزمان ، عن سر نجاح اليابان فى تحقيق التقدم ، وفشل مصر وتركيا فى تحقيقه ، فى وقت كانت التجربة اليابانية ، فى عهده ، مجرد تجربة وليدة ، لم تكتمل ملامحها بعد ، حتى يسهل الحكم عليها . ولكنه صفاء بصيرة العلماء ، الذى يمكنهم من أن يروا مالا يراه غيرهم . يقول الأفغانى : لقد « شيد

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ — ٢٥١ .
(٢) الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره — بقلم محمد عمارة — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، بالقاهرة — ١٩٦٨ ، ص ١٧٣ — ١٧٨ .

العثمانيون والمصريون ، عددا من المدارس ، على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم ، إلى البلاد الغربية ، ليحملوا إليهم ما يحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل ما يسمونه (تمدنا) ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها ، على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الإنسانى .

هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ »(١) .

ويجيب الأفغانى ، على تساؤله هذا ، بقوله : « نعم — ربما يوجد بينهم أفراد ، يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وماشا كلها ، « ومنهم آخرون ، عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية » ، ولكن « علمتنا التجارب ، ونطقت مواضى الحوادث ، بأن المقلدين فى كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى ، لتطرق الأعداء إليها »(٢) .

والعلاج الناجع للأمة فى نظره ، « إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه ، على ما كان فى بدايته » ، فإن « الأصول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للأمم ، قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل » ، « وتوسيع دائرة المعـــارف ، وتنتهى بها ، إلى أقصى غاية فى المدنية » .

وإذا كانت « دولة اليابان قد ارتقت بتقليد الغربيين ، وبدون توسط الدين » . فذلك لأن أبناء « الدولة اليابانية » ، قد « تركوا عبادة الأوثان » ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

« وجروا وراء العالم الدنيوى ، فقلدوا أعظم الأمم ، تقليدا صحيحا »(١) ، « فلم يمض على سعى اليابان هذا ربع جيل ، حتى انتظمت محاكمهم، وعم العلم الصحيح فى ناشئتهم » ، و « تم لليابان الفوز بالتقليد النافع ، وجلب المفيد اللازم ، من العلوم والفنون والصنائع »(٢) .

ولو أطال الله عمر الأفغانى، عقدا آخر من الزمان، لرأى ما رأته الدراسات المعاصرة، من أن سر هذا التقدم اليابانى، يعود بالدرجة الأولى، إلى عودة اليابانيين، إلى دينهم القديم ، لا إلى أخذهم بالحضارة الغربية ، التى هزت بنيان اليابان القومى تماما ، وكادت أن تدمره ، حيث ساد اليابان -مع الحضارة الغربية- فى أعقاب الحرب الأولى — « إحساس بالحقوق الشخصية ، بين أعداد متزايدة من عمال المصانع ، مما ولد حركة عمالية، ثم حركة اشتراكية، ودعوة الى (ثقافة)، تسعى للتحرر من الوطنية الأبوية »(٣) —محور الديانة الشينتوية – اليابانية ، لولا أن تدارك اليابانيون الأمر ، فصبغوا الحضارة الغربية المستوردة ، بصبغتهم الدينية تلك ، عن طريق المزج بين الحضارة الغربية، والأفكار الدينية اليابانية ، « وغالبا ما يجرى التعبير عن الأمثل الأعلى ، بأنه (الروح اليابانية ، والمواهب الغربية)»(٤)، على حد تعبير اللجنة الدولية التى كتبت تاريخ العالم — أو لولا عودتهم الى ما يسمى « حرفيا (إصلاح القلب) » ، حيث التأكيد على « فضائل الولاء للامبراطور ، والتقوى البنوية » ، « ولا شك أنه حتى

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) ماكوتو آسو ، وايكوو آماتو : التعليم ، ودخــول اليابان العصر الحديث — سفارة اليابان ، بجمهورية مصر العربية — ١٩٧٦ ، ص ٦٣ .

(٤) تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٢ (صورة الذات ، وتطلعات شعوب العالم) — اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو — الترجمــة والمراجعة : عثمان نويه وآخران — الهيئــة المصرية العــامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ١٠٦ .

إعادة صياغة النظام كله ، تحت تأثير التعليم الأمريكى ، فإن التهذيب الخلقى ، المبنى على الموافقات المقدسة للسلطة الامبراطورية ، كانت حافزا عظيما ، لتغيير نسيج الاقتصاد كله »(١) — على حد تعبير آدم كيرل .

فإمكانية البعث الحضارى ، أى العودة إلى الحضارة ، بعد البعد عنها ، غير واردة فى الفكر المادى ، وخاصة عند الماركسيين ، ولكنها واردة تماما فى الفكر الدينى ، ثم جاءت أحداث التاريخ ، لتؤكد ما قال به هذا الفكر الدينى ، من إمكانية العودة إلى طريق الحضارة ، من جديد .

فاليابان الحديثة ، سارت فى طريق الحضارة ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، حينما أخذت الحضارة الغربية كلها ، ثم انتكست نتيجة لهذا الأخذ ذاته ، ثم عادت إلى الحضارة مرة ثانية ، حينما عادت إلى تراثها الروحى ، فمزجته بهذه الحضارة الغربية — ولو أن مصر محمد على ، التى سبقت اليابان على طريق الحضارة الغربية الحديثة ، بحوالى نصف قرن من الزمان ، فعلت ما فعلته اليابان ، وعادت إلى الإسلام ، كما نادى المفكرون المسلمون ، من أمثال رفاعة الطهطاوى ، وجمال الدين الأفغانى ، فيما أوردناه سابقا ، أو كما نادى محمد عبده ومصطفى كامل ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، لكان لها اليوم شأن آخر . . فى عالمنا المعاصر ، وحضارته .

والغرب ، الذى يتربع اليوم على قمة من قمم الحضارة ، ما كان ممكنا أن يصل إلى هذه القمة ، لولا عودته إلى تراثه الروحى ، على عكس ما يفهم الكثيرون ، وعلى نحو ما سنرى فى الفصل الرابع ، بإذن الله .

والاتحاد السوفيتى ، الذى يتربع على قمة أخرى ، من هذه القمم الحضارية

---

(١) آدم كيرل : استراتيجية التعليم فى المجتمعات النامية (دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى) — ترجمة سامى الجمال — مراجعة د. عبد العزيز القوصى — الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

المعاصرة ، ما كان ممكنا أن يصل إلى قمته الحضارية تلك ، لولا تلك العودة ، على عكس ما يفهم الكثيرون ، وعلى نحو ما سنرى فى نفس الفصل الرابع .

وكل ذلك يؤكد أن الغرب والشرق معا، يشيعان مثل هذا القول المغلوط بيننا ، ليباعدوا بيننا وبين الحضارة ، وليحولوا بيننا وبين بلوغ ما بلغوه ، لأن حضارتهم — على نحو ما سنرى فى الفصل الرابع بإذن الله - قائمة على أساس (مص دماء) العالم الثالث : حيث المادة الأولية لصناعاتهم ، وحيث الأسواق ، التى يريدونها ، لترويج منتجاتهم الصناعية .

كما يؤكد ذلك أيضاً ، تلك الحملة التى تشن على كل جماعة تدعو إلى العودة إلى الإسلام الصحيح ، بوصفه موجها للحياة ، لا بوصفه — كما هو اليوم — مجموعة من الشعائر والطقوس ، منزوية ، فى ركن ضيق من أركان حياة الإنسان المسلم ، لا تتجاوزه ، ولا يستطيع الإسلام بها ، أن يحول حياة هذا الإنسان المسلم .. إلى طريق الحضارة .

ولنبدأ — قبل ذلك كله — باستعراض الحضارة الإنسانية ، منذ عصورها الأولى ، فى بيئات مختلفة ، لنتأكد من نفس الحقيقة — وهذا هو موضوع ... الفصل الثالث .

الفصل الثالث

الحضارات القديمة

تقـــديم :

رأينا فى الفصل الأول ،ان (الحضارة) مبنية على (الثقافة)[1] ،وأنها تقوم فى ظل (ظروف) معينة ، تؤدى إليها[2] ، وأنها لاتزدهر إلا عندما تستقر الفكرة الدينية فى النفوس ، فتجمع القلوب عليها ، وتوجهها نحو ماتنشد من حضارة[3] .

ولم تشذ الحضارات القديمة ، عن هذا الخط الحضارى العام ، بل لعل هذه الحضارات القديمة ، هى التى حددت معالم الطريق الحضارى ، للحضارات التالية .

وميزة الدين ، فى الحضارات القديمة والحديثة معاً ، أنه عندما يزدهر ، يبلور شخصية الأمة ، ويخلق أمامها (مثلا أعلى) ، تسير فى ظله ، وتشحذ طاقاتها، وصولا... إليه .

ولا يعنينا هنا ، أن يكون هذا الدين صحيحاً أو محرفاً ، سماويا أو وضعياً ، على نحو ما وضحنا فى الفصل الأول[4] ، وإن كان اقتراب الدين من كماله بطبيعة الحال ، يعطى الحضارة طاقة أكبر ، وعمراً أطول ـ وإنما الذى يعنينا ، هو أن يكون هناك دين ما ، فإن (دينا ما) ، أفضل من

---

(١) ارجع الى ص ٢٦ ، ٢٧ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٢٧ — ٣٢ من الكتاب .
(٣) ارجع الى ص ٣٣ ، ٣٤ من الكتاب .
(٤) ارجع الى ص ٣٦ ، ٣٧ من الكتاب .

(لا دين) ، لأن (دينا ما) ، يمكن أن يجمع الأمة ، ويشحذ طاقاتها ، أما (اللادين) ، فإنه يمزق الأمة شر ممزق ، حيث يكون لكل إنسان دينه ، أو هواه ، فتسود الأنانية ، وعلى مذبح الأنانية ، تذبح الأمة ، كما تشهد بذلك أحداث التاريخ الطويل .

ومن أجل تعميق هذه الفكرة — فكرة العلاقة العضوية بين الدين والحضارة — خصصنا هذا الفصل ، للحديث عنها ، من خلال عدد من الحضارات القديمة ، راعينا فى اختيارها، ألا نكون قد أسهبنا فى الحديث عنها، فى كتاب سبق من كتب السلسلة .

الحضارة الهندية :

بدأنا بالحضارة الهندية لسببين ، أولهما أنها قامت على أساس دين وضعى ، يقوم على الوثنية ، ومع ذلك ، فقد قامت على أساسه فى الهند ، حضارة قديمة ، وبه اجتازت الهند مشكلات عدة فى حياتها المعاصرة ، وبه — أيضاً — خطت على طريق الحضارة اليوم ، خطوات عدة . يضاف إلى ذلك ، أن هذا الدين لم يجمع أمة صغيرة حوله ، وإنما جمع (عالما) بأسره ، على حد تعبير ول ديورانت ، الذى يرى أننا لا ينبغى أن ننظر إلى الهند ، « نظرتنا إلى أمة واحدة ، مثل مصر أو بابل أو انجلترا ، بل لابد من اعتبارها قارة بأسرها ، فيها من كثرة السكان ، واختلاف اللغات ، ما فى القارة الأوربية ، وتكاد تشبه القارة الأوربية كذلك ، فى اختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها »(١) ، وهى تضم « خمس سكان الأرض جميعاً » (٢) .

وقد تطورت الديانة الهندية القديمة ، بتطور المجتمع الهندى القديم ،

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث (الهند وجيرانها) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٠ ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

وتطور ظروفه الداخلية ،والظروف من حوله ،فبدأت هذه الديانة طوطمية، متمثلة في « قوى الطبيعة نفسها ، وعناصرها »(١) ، بوصفها (مواطن) « لأرواح كثيرة ، تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم ، وكانت الثعابين والأفاعي مقدسات — إذ كانت آلهة تعبد ، ومثلا عليا تنشد ، في قواها الجنسية العارمة »(٢) ، « ولبثت النار (وهي الإله آجني) ، حينا من الدهر ، أهم آلهة الفيدا جميعاً »(٣) .

ويرى ول ديورانت ، أنه « لما كثر عدد الآلهة، نشأت مشكلة ، هي : أي هؤلاء الآلهة خالق العالم »(٤)، وأنه من هنا، نشأت فكرة أو « مذهب وحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ، فالخالق وخلقه شيء واحد ، وكل الأحياء ، كائن واحد »(٥) .

وكانت الأفكار الدينية في الهند القديمة شتى ، بحكم تنوع بيئاتها وظروف الحياة فيها ، على نحو ماسبق ، وظل الأمر كذلك ، حتى حملت إحدى الغزوات الآرية إلى الهند معها ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، كتاب (الفيدا) ، « وكلمة الفيدا تعني العلم عن طريق الدين ، بكل ما هو مجهول » ، « حيث فرضوا تعاليمه بما فيها من صور عقلية واجتماعية ، لا تتفق مع الهنود الأصليين »(٦) . وبذلك تم توحيد الديانة الهندية ، في دين واحد ، استخرج الكهنة فيما بعد منه ، « ديانة جديدة ، أطلقوا عليها (البراهمانية) ، نسبة إلى براهمان ، والكلمة تعني (الكينونة) »(٧) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٦) دكتور سعد مرسي احمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص ٥٨ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وتهدف الديانة الهندية الموحدة (البراهمانية) ، بتفصيلاتها التالية ، خاصة فى شكلها البوذى ، إلى تمكين الإنسان الهندى ، من الوصول إلى (النرفانا) ، وهى « حالة من السعادة ، يبلغها الإنسان فى هذه الحياة ، باقتلاعه لكل شهواته الجسدية ، اقتلاعا تاما » . ومعناها « فى تعاليم بوذا ، « فيما يظهر ، إخماد شهوات الفرد كلها » . « وعلى ذلك ، تتخذ كلمة (نرفانا) فى معظم النصوص ، معنى السكينة ، التى لا يشوبها ألم »(١) .

وقد كانت الديانة الهندية ديانة بسيطة أول الأمر ، قبل أن يكون هناك دين هندى واحد ، يجمع كل الهنود ، فلما فرضت تعاليم الفيدا ، وتطورت إلى البراهمانية ، ثم تطورت بعدها إلى البوذية ، بدأت التعقيدات تدخل عليها ، فتعقدت طقوسها ، و « تطلبت الديانة وسطاء فنيين ، بين الناس وآلهتهم ، ولهذا ازداد البراهمة عددا وثروة وقوة ، فباعتبارهم القائمين على تربية النشء ، والرواة لتاريخ أمتهم وآدابها وقوانينها ، استطاعوا أن يعيدوا خلق الماضى ، خلقاً جديداً ، وتشكيل المستقبل على صورتهم ، بحيث يصبون كل جيل ، صباً يزيد من تقديسه للكهنة ، فيبنون بهذا لطبقتهم ، مكانة ستمكنهم فى القرون المقبلة ، من احتلال المنزلة العليا ، فى المجتمع الهندوسى »(٢) .

ونذكر هنا مجرد تذكير ، بأن وجود طبقة الكهنة تلك ، فى المجتمع الهندى القديم ، لم يكن شيئا فريدا ، بل إنه يكاد أن يكون قاعدة متبعة ، فى كل مجتمع قديم تحضر ، ولعل أشهر هؤلاء الكهنة ، فى المجتمعات المتحضرة القديمة ، كهنة مصر القديمة ، الذين كانوا يحتلون المرتبة الثانية ، فى الحياة الاجتماعية المصرية ، بعد فرعون مصر ذاته ، الذى كان يصل إلى درجة التأليه ، فقد كان الكاهن فى مصر القديمة « هو العالم ، وهو الفيلسوف ، وهو الطبيب ، وهو الفلكى والرياضى ، وذلك لأن علم

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث (الهند وجيرانها) (المرجع الأسبق) ، ص ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

عندهم ، كان مختلطاً بالدين والفلسفة »(١) ، كما كان التعليم العالى فى مصر القديمة ، يتم فى المعابد تحت إشراف الكهنة(٢) أيضاً ، وكانت « طبقة الكهنة » هذه ، « هى أشرف الطبقات وأعلاها »(٣) ، وكان الكهنة « رجال العلم وحفظته ، والمعلمين والمؤدبين »(٤) .

أى أن (مفتاح) الحياة المصرية العامة ، كان فى أيدى الكهنة ـ وبين أيديهم وضع مستقبل مصر كله ، يشكلونه كما كان فى أيديهم أيضا ، مفتاح الحياة العقلية المصرية ، فلم تكن حتى الفلسفة ، وهى عمل عقلى خالص ، فلسفة « بالمعنى الفلسفى الدقيق ، بقدر ما كانت ألوانا من الحكمة ، وضروباً من المبادىء والقواعد ، مما كان يتصل من قريب أو من بعيد ، بالدين والعقائد »(٥) .

ومن ثم فلم يكن المجتمع الهندى القديم بدعا فى ذلك ، حينما حصل كهنة البراهمة على امتيازات خاصة ، كانت هى التى تقف وراء ما أحرزته الهند القديمة ، من تقدم .

وبجانب البراهمة ، كان هناك أيضاً « (الكشاترية) » ، التى « لم تخف

---

(١) السيد محمود ابو الفيض المنوفى : اصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر ، للطبع والنشر — ١٩٦٩ ، ص ٦ .

(٢) محمد توفيق خفاجى : اضواء على تاريخ التعليم ، فى الجمهورية العربية المتحدة — اشراف ومراجعة دكتور ابراهيم حافظ — وزارة التربية والتعليم — مركز الوثائق والبحوث التربوية — مطبعة وزارة التربية والتعليم — ١٩٦٣ ، ص ١٥ .

(٣) مصطفى امين : تاريخ التربية — الطبعة الأولى — مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر — ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م ، ص ١٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٥) رينيه ديكارت : مقال عن المنهج — ترجمة محمود محمد الخضيرى — الطبعة الثانية — راجعها وقدم لها : الدكتور محمد مصطفى حلمى — من (روائع الفكر الانسانى) — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر — ١٩٦٨ ، ص ٣ ، ٤ (من التقديم ، للدكتور محمد مصطفى حلمى) .

زعامتها الفكرية ، بالقياس إلى البراهمة ، حتى فى عهد بوذا نفسه ، بل إن الحركة البوذية نفسها ، التى أسسها شريف من أشراف الكشاترية ، نافست البراهمة ، زعامتهم الدينية على الهند ، على مدى ألف عام .

وتحت هذه الأقليات الحاكمة ، طبقات فى منازل أدنى ، مثل طبقة التجار (الفيزيا) ، وطبقة الصناع (الشودرا) ، « وأخيراً هناك (الباريا) ، أو المنبوذون ، وقوامهم قبائل وطنية ، لم ترتد عن ديانتها » ، « وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد ، على سبيل العقاب . ومن هذه الفئة ، التى كانت بادئ أمرها جماعة صغيرة ، لا تنتمى إلى طبقة من الطبقات ، تكونت جماعة (المنبوذين) فى الهند »(١) ، الذين ظلوا منبوذين ، حتى حررهم غاندى (١٨٦٩ — ١٩٤٨) ، عندما أراد لم شمل الهند ، ليستطيع القضاء على الاستعمار الانجليزى لها .

وإلى قوة الديانة الهندية ، بما دخل عليها من تطويرات ، فى نفوس الهنود ، يعود صمود الهنود فى وجه الأديان الأخرى ، واستعصاؤهم عليها ، فالمسيحية ، برغم الجيش الانجليزى المستعمر ، والمبشرين الذى عملوا فى حمايته طوال القرن التاسع عشر ، وبرغم اقتراب المثل الأعلى الهندى من المثل الأعلى المسيحى — لم تجد لها مكاناً على أرض الهند(٢) . وصفحة الإسلام مع الهند ، هى « أكثر صفحات التاريخ تلطخا بالدماء »(٣) ، على حد تعبير ول ديورانت .

يضاف إلى ذلك قدرة الهنود ، على إخضاع أى دين يصادفونه ، للهندوسية

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث (الهند وجيرانها) (مرجع سابق) ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

لم يستعص عليهم فى ذلك، إلا الإسلام ، على حد تعبير ول ديورانت ، مما يشهد — فى رأيه — « على مايتصف به العقل الإسلامى، من وجولة »(١).

وقصة الهند وباكستان ، وانفصالهما ، ثم ما دار — ويدور — بينهما من حروب — لاتزال ماثلة أمامنا ، وليس هنا مجال تفصيلها أو إعادتها .

وهى قصة تدل على قدرة الدين على العطاء ، حتى ولو كان وثنياً .

وإلى هذه الديانة الوثنية فى الهند ، تعزى قدرة الهند على الصمود فى ماضى الأيام ، وقدرتها على القيام اليوم ، وقدرتها المتوقعة ، على التقدم فى المستقبل .

الحضارة الصينية :

والصين — على حد تعبير ول ديورانت — « كالهند ، يجب أن نشبهها بأوربا بأكملها ، لا بأمة واحدة من أممها ، فليست هى وطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول ، متباينة اللغات ، غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ، وكثيرا ما يعادى بعضها بعضاً ، فى العادات، والمبادئ الخلقية، والنظم الحكومية »(٢) .

ورغم ذلك ، فإن ظروفها الجغرافية ، المغايرة لظروف الهند ، خطت لها معالم، مختلفة عن معالم شخصية الهند ودينها ، فقد « كان يكتنفها فى معظم مراحل تاريخها ، أكبر المحيطات ، وأعلى الجبال ، وصحراء من أوسع صحارى العالم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٧ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الأول (٤) (الشرق الأقصى) (الصين) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ ، ص ١٤ .

لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة ، كانت هى السبب ، فى حظها النسبى من السلامة والدوام ، والركود وعدم التغيير »(١) .

ويرى ديورانت ، أن « المسافات الشاسعة ، التى تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الامبرطورية ، والجبال الشاهقة ، والصحارى الواسعة ، والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة و... » ، « كانت هذه كلها عوامل ، تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها ، استقلالا ذاتيا ، يكاد يكون كاملا ، من كل الوجوه »(٢) .

« وكان الامبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة ، من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية ، بحقه المقدس ، فقد كان هو (ابن السماء) ، ويمثل الكائن الأعلى ، فى هذه الأرض »(٣) — وذلك على نحو قريب ، مما رأيناه يحدث فى اليابان ، فى الفصل السابق(٤) .

وقد كان هذا (الولاء) للامبراطور — ابن السماء ، هو الذى خلق فى نفس الصينى من قديم ، ما تميز به من ولاء نادر ، (للأسرة) الصغرى ، وللأسرة الكبيرة على السواء ، فقد كان هذا « الولاء » — على حد تعبير بانيكار — هو الذى خلق « القدرة ، التى كان نواب الملك بالصين ، ينفذون بها سياسات الإدارة المركزية ، وذلك حين كانت حكومة بيكين نفسها ، ضعيفة وفاسدة ، وعديمة الكفاءة »(٥) ، كما « كانت قوة الصين كشعب » —

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ ، ١٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .
(٤) ارجع الى ص ٦٠ — ٦٣ من الكتاب .
(٥) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — مراجعة احمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٧٠ .

على حد تعبير فورستر — « تسكن فى قوة نظام الأسرة بها ، وكان ضعفها كأمة ، يعود إلى غياب سلطة مركزية فيها »(١) .

وقد كان هذا التناقض ، الذى لم يقض عليه عدوان من الخارج ، كما حدث فى الهند ، هو الذى أدى إلى عدم وجود كهنة صينيين ، برغم سيطرة الدين على النفوس ، حيث « لم توجد على ظهر الأرض أمة ، تماثل الأمة الصينية ، فى التحرر من سيطرة الكهنة » .

« ولم يكن دين سكان الصين البدائيين ، يختلف بوجه عام ، عن دين عبدة الطبيعة ، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة ، وعبادة الأرواح الكامنة ، فى جميع نواحيها »(٢) .

« ومن هاتين البدايتين ، نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومى ، وهما : عبادة الأسلاف ، المنتشرة بين جميع طبقات الأمة ، وعبادة السماء ، وعظماء الرجال ، التى تدعو إليها الكنفوشيوسية »(٣) — دين الصين المختار .

ولا تعنى (مظاهر التخلف) ، التى يشير إليها كلام ول ديورانت وغيره ، فيما سبق ، تخلفاً حقيقياً ، عند ول ديورانت ، لأننا — على حد تعبيره — إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان ، رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية ، عوامل النقاهة والتجديد ، فأراضيها الواسعة الرقعة ، المختلفة الأنواع ، غنية بمعادنها ، « وليس فى العالم كله ، شعب أكثر من هذا الشعب نشاطاً

(1) FORSTER, LANCELOT : The New Culture in China, with an Introduction by : Sir Michael Salder ; Goerge Allen & Unwin Ltd., London, 1936, pp. 50, 51

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الأول (٤) (الشرق الاقصى) (الصين) (مرجع سابق) ، ص ٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

وذكاء ، وليس فيه شعب يماثله، فى قدرته على التكيف ، حسب ما يواجهه من الظروف ، وفى مقاومته للأمراض ، وفى انتعاشه بعد الكوارث والآلام »(١) . يضاف إلى ذلك ، أن هذا الشعب قد سبق غيره إلى اختراع الطباعة فى نظره ، « وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة فى بلاد الصين، باعثا دينيا »(٢) ، كما كان فى غيرها ، كما أنه سبق غيره من الشعوب، إلى اختراع أمور كثيرة ، يستفيد بها فى حياته العملية .

وهذه الوجهة (الذرائعية) ، أو (العملية) ، فى حضارة الصين ، ظلت موجودة منذ أقدم العصور ، وحتى النهضة الصينية المعاصرة ، التى جعلت « الاهتمام الصينى ينصب كلية تقريباً ، على النواحى الفنية » ، فى حضارة الغرب ، « على خلاف الهنود ، الذين اكتسبوا الاتجاهات الليبرالية الغربية ، قبل أن يكتسبوا الأساليب العلمية الغربية »(٣) - وجعلت الصينيين المعاصرين، يأخذون التعليم الغربى ، ولكنه « لم يوظف كثقافة ، تؤثر فى الحياة وفى الأخلاق ، بل كسلاح اقتصادى وسياسى ، تستخدمه الصين كأمة » (٤) .

ولم يكن غريباً أن ينظر الصينيون إلى غيرهم من الأمم والشعوب ، على حد تعبير ول ديورانت ، على أنهم (برابرة) ، « وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ ، أن يترجموا لفظ (اجنبى) فى وثائقهم الرسمية ، باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى »، وأن يكونوا ، « كمعظم شعوب الأرض (يرون أنهم أعظم الأمم مدنية ، وأرقهم طباعا) . ولعلهم محقون فى زعمهم هذا ، رغم ما فى بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٢ (صورة الذات ، وتطلعات شعوب العالم) (مرجع سابق) ، ص ٩٨ .

(4) FORSTER, LANCELOT ; Op. Cit., p.p. 45, 46.

فى العلوم و ... » – «ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم » ، « مدنية من أقدم المدنيات القائمة فى العالم ، وأغناها »(١) .

وقد راحت هذه المدنية القديمة ، تتجدد اليوم ، بعد طول تخلف ، وبعد سيطرة ماو – تسى تونج على السلطة سنة ١٩٤٩ ، وبعد محاولات لتطبيق الماركسية – اللينينية حرفياً ، فشلت، لعدم مناسبتها للديانة الكونفوشيوسية، فرفت لتناسب الكونفوشيوسية ، دين الصينيين القديم ، حيث اعتبر ماو الصين، « وريثة حكمة الحكماء الصينيين » ، « وجد العلماء الصينيون البارزون فى كتب كونفوشيوس ، أساساً للمبادىء الثورية والديموقراطية »(٢) .

أى أن الصين الثورة – منذ سنة ١٩٤٩ – لم تستطع أن تتحول إلى دولة كبرى ، يوم فجرت قنبلتها الذرية سنة ١٩٦٤ ، ثم فرضت من بعدها احترامها على العالم ، وخاصة على خصميها اللدودين : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة – إلا يوم عادت إلى تراثها الروحى ، حيث « قامت الزعامة الصينية ، بتطبيق المبادىء الماركسية – اللينينية ، بمرونة براجماتية ، على ضوء ظروف العيش ، والانتفاع ما أمكن ، بما سبق من تجارب الدول الأخرى ، فى هذا المضمار »(٣) .

ولولا عودة الصين إلى دينها القديم ... ما استطاعت أن تكون اليوم،

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة – الجزء الرابع من المجلد الأول
(٤) (الشرق الأقصى) (الصين) (مرجع سابق) ، ص ١٠ .

(٢) كنت كراج : « التأثير الفكرى للشيوعية فى الاسلام المعاصر » – **الثقافة الاسلامية ، والحياة المعاصرة** – مجموعة البحوث ، التى قدمت لمؤتمر برنستون ، للثقافة الاسلامية – جمع ومراجعة وتقديم : محمد خلف الله – مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٠٣ .

(٣) تاريخ البشرية – المجلد السادس (القرن العشرون) – التطور العلمى والثقافى – الجزء الثانى – ١ (تطور المجتمعات) – اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو – الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – ١٩٧١ ، ص ١١١ .

دولة عظمى ، تخيف العملاقين الكبيرين ، العدوين القليدين لها : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي .

الحضارة الاغريقية :

وندع الحضارتين الشرقيتين القديمتين ، الهندية والصينية ،إلى حضارتين غربيتين قديمتين ، هما الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية ، حيث أن الحضارة الغربية المعاصرة ، هي البنت الشرعية ، لهاتين الحضارتين ـ ولنبدأ بالحضارة الإغريقية .

والحضارة الإغريقية ـ كالحضارة الرومانية ، وكغيرها من الحضارات ـ قامت على أساس دين ، ولم تقم من وراء ظهر هذا الدين ، كما يدعى البعض ، ممن يرون أنه على يد الإغريق ، تمت تنحية الدين عن الحياة العامة ، حيث رفع الإغريق « من شأن العقل »(١) ،وأصبحت المدارس ، التي تهدف في أي مجتمع إلى تخريج المواطن المطلوب ، ذات طابع مدني خالص(٢) ، وأنه من أيامهم ، « بدأت العلاقة بين التعليم والسياسة ، تلك العلاقة التي استمرت حتى وقتنا الحاضر »(٣) .

والواقع أن القيمة الحقيقية للحضارة الإغريقية ، هي أن بلاد الإغريق كانت ـ بحكم موقعها الجغرافي — ملتقى حضارات الشرق كله ، وخاصة الشرق الأدنى — مصر والشام . فقد« كان معظم اليونان يعتقدون، أن عناصر كثيرة من حضارتهم ، قد جاءتهم من مصر » ، « عن طريق فينيقية

---

(١) دكتور رءوف سلامة موسى : في ازمة العلم والجامعات — دار ومطابع المستقبل ، ص ٢٤ .

(2) SMITH, WILLIAM A. ; Op. Cit., p. 131.

(٣) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات في التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨ ، ص ٣٧ .

وكريت(١) - حتى لقد كانوا يرون «أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة ، وفى فنونهم الرفيعة بوجه خاص »(٢) .

« وكان أثر فينيقية فى اليونان ، لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها »(٣) .

وكان مما أخذوه من حضارات الشرق القديم المعاصرة لهم ، الأفكار الدينية ، ومن ثم حفل تاريخ العقيدة عندهم ، على حد تعبير المرحوم عباس محمود العقاد ، بجميع أنواع العقائد البدائية ، قبل أرباب (الأولمب) ، الذين خلدوا فى أشعار هومير وهزيود »(٤) ، حتى ليمكن « أن يقال : إن اليونان أخذوا فيها كل شىء ، ولم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر ، فى مسائل الإيمان ، وأنهم حين بدءوا عصر الفلسفة ، كان أساسها الأول ، عهدا لهم فى العقائد ، التى أخذوها عن الديانات الآسيوية والمصرية »(٥) .

وقد لخص ول ديورانت ، العطاء المتبادل بين بلاد الإغريق وبلاد الشرق ، بقوله : « وقصارى القـــول ، أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وأن الشرق عـرض عـــلى اليونـان الدين ، وكانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربيـــة فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعـــارف بمصر — ١٩٦١ ، ص ٨٥ — نقـــلا عن :
— Mahaffy, J. P., What Have the Greeks Done for Modern Civilization ; New-York, 1909, p. 11.

(٢) طه حسين : مستقبل الثقـــافة فى مصر — مطبعـــة المعـــارف ومكتبتها بمصر — ١٩٣٨ ، ص ١٧ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التـــأليف والترجمـــة والنشر — ١٩٥٣ ، ص ١٣١ .

(٤) عباس محمـــود العقـــاد : الله — مطابع الأهـــرام التجارية — ١٩٧٢ ، ص ٨٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

الدين ، فكان سلوى للكثيرين »(١) .

ثم يحل لنا ول ديورانت المشكلة الدينية عند الإغريق ، بقوله : إنه « لم يكن للدولة دين رسمى ، يستمسك به جميع أفرادها ، أو عقائد ثابتة مقررة، ولم يكن قوام الدين، هو الإقرار بعقائد معينة ، بل كان قوامه الاشتراك فى الطقوس الرسمية ، وكان فى وسع أى إنسان ، أن يؤمن بما يشاء من العقائد ، على شريطة ألا يكفر بآلهة المدنية ، أو يسبها . وملاك القول ، أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً ، فى بلاد اليونان »(٢) .

ونتيجة لهذه (الفردية) الدينية ، « لم تكن الطقوس الدينية اليونانية ، أقل تنوعا واختلافا ، من الآلهة التى كانت تحتفل بها وتعظمها » ، « ولم تكن هذه أو تلك ، تحتاج إلى كهنة ، يقومون بها ، فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن فى الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر، يقوم مقامه فى الدولة .

بيد أن الحياة فى بلاد اليونان، لم تكن حياة دنيوية ، كما يصفها المؤرخون، بل كان للدين فيها شأن كبير فى كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية ، وترى أنها لابد منها للنظام الاجتماعى ، والاستقرار السياسى .

على أنه بينما كان الكهنة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى ، يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة فى بلاد اليونان، هى التى تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة فى الشئون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار ، فى الهياكل »(٣).

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٤ ، ص ٤٧ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

وهكذا ، «كان الدين عاملا فى التفرقة بين اليونان ، بقدر ما كان عاملا فى وحدتهم » ، « وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية ، تغذى الشرك ، وتجعل التوحيد مستحيلا ، فقد كان لكل أسرة فى أيام اليونان القديمة ، إلهها الخاص ، توقد له فى البيت النار » ، « وتقرب له القربان ، من الطعام والخمر ، قبل كل وجبة . وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام ، بين الآدميين والآلهة ، أول الأعمال الدينية الأساسية ، التى تعمل فى البيت »(١) .

« كذلك كان لكل جماعة ، بطنا كانت أو عشيرة ، أو قبيلة أو مدينة ، إلهها الخاص بها » ، « وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص ، أو راع حارس ، بلغة هذه الأيام »(٢) .

« وكانت قوانين اليونان ، ترى المروق من الدين – أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية – جريمة كبرى ، يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون ، الذى حكم به على سقراط بالموت »(٣) .

أى أن الدين كان موجودا عند الإغريق ، ربما بصورة أقوى من تلك تلك الصورة ، التى وجد عليها فى أى مجتمع آخر – إلا أن هذا الدين كان قوامه الفردية Individualism – نفس الفردية ، التى تعتبر سمة الحياة الأساسية فى الغرب اليوم ، وهى معنى الليبرالية الغربية ، فقد « ظلت الفردية هى الظاهرة التى يدور حولها التفكير الغربى ، على الأقل منذ القرن الثامن عشر »(٤) –

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة – الجزء الخامس ، من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمان) – ترجمة محمد بدران – الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية – لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٩١ .

(4) DUBIN, ROBERT : Human Relations in Administration, with Readings ; Third Edition, Prentice-Hall of India Private Limited, New-De lhi, 1977, p. 77.

أى بعد اكتشاف الإغريق فى عصر التنوير، على نحو ماسنرى، عند حديثنا عن الحضارة الغربية، فى الفصل التالى .

وكانت نتيجة قوة العقيدة الدينية عند الإغريق على هذا النحو، تلك الحضارة الإغريقية الرائعة المعروفة، التى حققها الإغريق، والتى بلغت ذروتها، فى القرن الخامس قبل الميلاد، فى عصر بركليز (٤٦٠ — ٤٣٠ ق.م)، « الذى نبغ فيه الشعراء والخطباء والكتاب والممثلون والمصورون والفلاسفة، وغيرهم ممن هم فخر اليونان، وغرة فى جبين التاريخ »(١) .

ويكفى هذه الحضارة اليونانية، التى أنبتتها عقيدة الإغريق الدينية، روعة « ان الجنس البشرى، لا يكاد يجد شيئاً فى ثقافته الدنيوية — اللهم إلا آلاته — ليس مديناً به لليونانيين . فالألفاظ الدالة على المدارس والملاعب والحساب والهندسة والتاريخ والبلاغة وعلوم الطبيعة والأحياء... » « والاستبداد والديمقراطية، كل هذه ألفاظ يونانية، لصور من الثقافة، لم ننشئها نحن إنشاء، بل إنها نضجت وترعرعت — خيرا كان ذلك أو شراً — بفضل نشاط اليونان العظيم »(٢) .

كما يكفيها روعة، أن سقوط بلاد اليونان فى يد الرومان، لم يقض على الحضارة الإغريقية، وإنما أدى إلى انتشارها، فإن « الدم الهلينى، واللغة اليونانية، والثقافة اليونانية، قد شقت طريقها إلى داخل آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين، واخترقت سوريا وبابل، وتخطت نهرى الفرات ودجلة، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسيهما »(٣) وهكذا، فإن « العصر الهلنستى، لم يشهد

---

(١) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤، ص ١٠ (من المقدمة) .

(٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية، فى العصور القديمة (مرجع سابق)، ص ٧٢ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق)، ص ٧، ٨ .

سقوط الحضارة اليونانية ، بل شهد انتصارها »(١) ـ على حد تعبير ول ديورانت ـ

ولم تضعف الحضارة الإغريقية ، إلا عندما ضعف سلطان الدين على النفوس ، حيث « ظهر (أبيقور) الدهرى ، وأتباعه الدهريون ، فى بلاد اليونان ، متسمين بسيما الحكماء ، وأنكروا الألوهية » ، « وأعلنوا أن الحياء ضعف فى النفس » ، « فلما ضربت أفكار النيشريين (الدهريين) فى نفوس اليونان . بسعى الأبيقوريين ، ونشبت بعقولهم ، سقطت مداركهم إلى حضيض البلادة . وكسد سوق العلم والحكمة » ، « ثم انتهى أمرهم ، بوقوعهم أسرى . فى أيدى الرومانيين »(٢) .

وقد لخص ول ديورانت المأساة فأجاد التلخيص ، حين قال : « وليس فى مقدور الإنسان أن يدرك عظم الأثر ، الذى يحدثه فى الأمة . موت دينها التقليدى » ، و « لكن الرجل اليونانى المتعلم ، قد خسر فى الوقت الذى نتحدث عنه ، دينه ووطنيته »(٣) .

الحضارة الرومانية :

والحضارة الرومانية هى بنت الحضارة الإغريقية ، وبدون هذا (التزاوج) بين الحضارتين ، ما كانت الحضارة الرومانية لتوجد ، ولم تكن الامبراطورية الرومانية ، لتجد لها على صفحات التاريخ ، مكانا، وما كان الإغريق ليخلدوا على هذا النحو الرائع، الذى خلدوا به .

ذلك أن الشعب الرومانى لم يكن بطبعه ، « شعباً مبتكراً ، بقدر ما كان ممتازاً فى النواحى التطبيقية . . فقد استعاروا أفكار اليونانيين القدماء ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .
(٢) الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ — ١٥٦ .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٢٤ .

وترجموها إلى أعمال — استعاروا منهم الرياضة والعلوم ، وطبقوها فى رصف الطرق والبناء ، واستعاروا أفكارهم عن تنظيم المجتمعات ، فساعدتهم هذه الأفكار ، على سن القوانين ، التى صارت — ومازالت — مرجعاً للأمم الحديثة ، فى شئونها المعقدة »(١) .

أو على حد تعبير ول ديورانت : « لم يكن الرومان بطبعهم شعباً فنيا ، فقد كانوا أغسطس قبل محاربين ، وكانوا بعده حكاماً »(٢) .

ومع ذلك ، فإنهم — بالحرب — سيطروا على بلاد اليونان وعلى حضارتها ، وبالحكم ، تمكنوا من نشرها فى أنحاء عديدة من العالم ، وكأنهم كانوا يحاربون من أجل نشرها ، حتى « لقد قيل : إن اليونان المغلوبة ، هى التى أسرت قاهرتها روما ، وذلك بغزو الثقافة اليونانية القديمة ، للامبراطورية الرومانية ، التى أصبحت اليونان جزءا منها »(٣) .

و « كانت الطريقة التى غزت بها بلاد اليونان رومة ، أن بعثت إلى عامتها بالدين اليونانى ، والمسرحيات الهزلية اليونانية ، وإلى الطبقات العليا من أبنائها ، بالأخلاق والفلسفة اليونانية .

واشترت هذه الهدايا اليونانية ، مع الثروة الرومانية ، ومع الإمبراطورية الرومانية ، على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها »(٤) .

---

(١) فتحية حسن سليمان (مرجع سابق) ، ص ٧٤ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٢٥٠ .

(٣) فتحية حسن سليمان (المرجع الأسبق) ، ص ٨٨ .

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م ، ص ١٩٩ .

وهو نفس الأسلوب ، الذى يلجأ إليه أحفاد الإغريق المعاصرون ، لمسخ شخصيات الشعوب التى ابتليت بهم ، كما نرى فى عالمنا العربى والإسلامى المعاصر — وهى مجرد ملاحظة ، ما كان ليفوتنا أن نشير إليها .

وقبل أن نخوض فى الحديث عن الحضارة الرومانية ، ربما كان مفيداً ، أن نبدأ بتوضيح (أصل) الرومان .

وأصل الرومان ، مجموعة (قبائل) ، هاجرت إلى إيطاليا الحالية ، « من أوربا ، ومن آسيا الصغرى ، ومن شواطئ البحر الأدرياتيكى » .

« وتنتمى تلك القبائل — التى هاجرت إلى إيطاليا — إلى جنسيات ثلاث رئيسية ، هى : الجنسية الإيطالية » . « ومن الإيطاليين ، القبائل اللاتينية Latins وغيرها .

أما الجنس الثانى فهم : الإترسكانيون Etruscans ، وكانوا قبائل من أصل غير معروف ، إلا أن بعض المؤرخين يرجحون ، أنهم نزحوا من آسيا الصغرى » .

« والجنس الثالث هم : اليونانيون ، الذين نزحوا من اليونان ، إلى جنوبى إيطاليا وصقلية ، حوالى القرن الثامن قبل الميلاد »[١] .

وقامت حروب — كان لابد أن تقوم — بين الجنسيات الثلاثة ، استمرت « قرنين ونصف قرن تقريباً ، وانتهت بتغلب روما فى النهاية ، فأصبحت بذلك أولى مدن إيطاليا ، وسيدة الموقف فيها على العموم »[٢] — سنة ٢٧٥ ق م

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) فتحية حسن سليمان (مرجع سابق) ، ص ٧٣ .

وما أن تمكن العنصر اللاتيني من إخضاع العنصرين الآخرين ، حتى بدأ منذ سنة ٢٧ ق . م، يتجه إلى الخارج ، حيث كون امبراطورية ضخمة . وكانت هذه السلسلة الطويلة من النجاح المتصل للجنس اللاتيني ، داخل إيطاليا وخارجها ، هي التي جعلت «الرومان، الذين كانوا من أصل لاتيني» يشتهرون ، باعتقادهم أنهم أعظم الأجناس البشرية وأنبلها ، وبأنهم خلقوا للسيادة والتحكم ، وعلى ذلك ، فقد حاربوا غيرهم من القبائل والأجناس ، واستعبدوا من انتصروا عليه »[1] .

ولم يكن ممكنا أن تتم هذه السلسلة من الانتصارات الرومانية ، بمعزل عن الدين

وكان محور الدين الروماني هو (الأسرة) - في مقابل الفرد ، كمحور للدين الإغريقي . «لقد كانت الأسرة الرومانية ، رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة ، والآلهة من جهة أخرى . وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادي ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنبع الذي تستمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها ، مهما صغر ، وكل مظهر من مظاهر وجودها ، يرتبط ارتباطا وثيقاً وجدياً ، بالعالم الروحي » .

« ولم يكن الروماني ، كما كان الإغريقي ، يفكر في آلهته ، كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسميها إلا نمينا Mumina ، أي الأرواح ، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان ، معنويات مجردة ، كالصحة ، أو الشباب ... » ، « وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة ، كالحصان ، أو الحيوان الذبيح ، أو الأوز المقدس »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

« وكان احب هذه الآلهة القومية الأولى ، إلى قلوب الشعب ، الإله جوبتر، أو جوف Jupiter or Jove، وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها، كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان » .

« وكانت إلهات رومة . أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن احب إلى قلوب الشعب ، من الآلهة الذكور » .

« وكان للأهلين غير هؤلاء ، أرباب قومية ، أصغر منها ، ولكنها لم تكن تقل عنها محبة ، لدى الرومان »(١)

« وفي رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة، وأصدقاءها الأوفياء، كان الخروج عليهم ، أو التجديف في حقهم ، من جرائم الخيانة العظمى ، التي يعاقب عليها بالإعدام »(٢) .

وقد « استخدمت إيطاليا نظاما من الكهنوت ، محكم الوضع ، لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب ، وكان الأب في منزله كاهنا ، ولكن الصلوات العامة ، كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة » ، «ويرأسها كلها حبر أعظم »(٣) .

« وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً ، طائفة العرافين التسعة ، الذين كانوا يدرسون إرادة الآلهة ومقصدهم »(٤) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجـزء الخـامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمـان) (مرجع سابق) ، ص ٩١ .

(٣) دل ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، او الحضـارة الرومانيـة) (المرجع الأسـبق) ص ١٣٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

وهكذا تتشابه الخيوط الدينية الرومانية فى بعض جوانبها ، مع الخيوط الدينية اليونانية ، كما تتشابه فى بعضها الآخر ، مع الخيوط الدينية المسيحية، على نحو ما سنراها فى مطلع الفصل التالى . وهو تشابه ليس فيه غرابة ، لأنه وليد بيئة واحدة ، وعقلية واحدة ، ونفسية واحدة - عاش فيها فى بلاد الإغريق وروما قديما ، ويعيش الأحفاد اليوم فيها ، فى غرب أوربا المسيحية، الذين تنسب إليهم الحضارة الغربية المعاصرة ، على نحو ما سنرى ، فى الفصل التالى .

وحتى يكتمل هذا الشبه بين دين الحضارتين ، الرومانية ، والمسيحية فى العصور الوسطى على الأقل ، تتم رحلتنا مع ول ديورانت ، الذى يرى أن دين الرومان قد رضى « عن الألعاب ، وعدها الصور الصحيحة للاحتفالات الدينية ، ولذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة » ، « وكان الإمبراطور ، الذى يرأس هذه الاحتفالات ، هو الكاهن الأكبر ، لدين الدولة » .

« وقد بذل أغسطس وخلفاؤه ، كل ما وسعهم من جهد ، ليعيدوا الحياة إلى الدين القديم ، إلا عنصرا من عناصره ، وهو الحياة الأخلاقية الفاضلة . وحتى أشد الأباطرة كفرا بهذا الدين ، أمثال كلجيولا ، ونيرون ، كانوا يؤدون جميع المراسم والطقوس ، الواجبة للآلهة الرسمية »(١) .

وقويت الإمبراطورية الرومانية ، بقوة الدين الرومانى ، المعبر عن الشخصية الرومانية ، واتسعت هذه الإمبراطورية اتساعا شملت به القارات الثلاث : أوربا وأفريقية وآسيا .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٣٥٣ .

ثم خفت نور الدين الرومانى ، فبدات شمس الإمبراطورية فى الأفول، وكانت بداية هذا الخفوت ، تطلع الرومان إلى آلهة الإغريق ، « فى القرن الثانى قبل الميلاد ، حينما أصبح الأثر اليونانى قويا ، فقد اتخذ الرومان كثيراً من آلهة اليونان وإلهاته ، واتخذت مبانيهم ومعابدهم وتماثيلهم ، الطابع اليونانى .

وبتولى أغسطس الحكم كامبراطور ، فى القرن الأول قبل الميلاد ، اتخذ الدين الرومانى شكلا هاما آخر، وذلك هو العبادة الشخصية للامبراطور نفسه »(١) ، فقد كان أغسطس - على حد تعبير ول ديورانت - « من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل فى هذا التنافس . ذلك أن مجلس الشيوخ ، اعترف بألوهية قيصر ، بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت فى سائر أنحاء الامبراطورية » (٢) .

وكان ذلك هو (قاصم الظهر) ، بالنسبة للدين وللامبراطورية معا ، فان « الدين القديم ، رغم هذه المظاهر الخارجية ، دب فيه دبيب الفناء ، من أعلاه ومن أسفله على السواء . ولم يكن تأليه الأباطرة . دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها ، بقدر ما كان شاهدا على قلة إجلالها لآلهتها . وأخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين ، وإن كانت فى الوقت نفسه ، تبسط على هذه العقائد حمايتها » (٣)

ثم جاءت خاتمة الامبراطورية ، على يد المسيحية ، بعد ظهورها ،

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية ، فى العصور القديمة (مرجع سابق) ، ص ٢٨٢ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (المرجع الأسبق) ، ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

فعلى يديها ، سقطت الامبراطورية ، كما سقطت بلاد الإغريق من قبل على يد روما ، ولكن الدين الرومانى وجد حياته من جديد فى المسيحية ، كما وجدت الفلسفة الإغريقية حياتها ، فى الامبراطورية الرومانية .

ويرى ول ديورانت ، أن « سقوط رومة كقيامها ، لا يعزى إلى سبب واحد ، بل إلى كثير من الأسباب » ، وأن « الحضارة العظيمة، لا يقضى عليها من الخارج ، إلا بعد أن تقضى هى على نفسها من الداخل . وشاهد ذلك، أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة . فى شعب رومة نفسه ، أى فى أخلاقها ، وفى النزاع بين طبقاتها ، وفى كساد تجارتها ، وفى حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفى ضرائبها الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة » (١)

وقد « عجل الفساد الخلقى هذا الانحلال . ذلك أن صفات الرجولة ، التى نشأت من بساطة العيش ، وتحمل المشاق ، ودعمها إيمان قوى - نقول إن هذه الصفات ، قد أضعفها بهرج الثروة ، وحرية عدم الإيمان » .

« ويقول عظيم المؤرخين ، إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية ، لأن هذا الدين ، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه ، قد قضى على العقائد القديمة ، التى كانت هى الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانية ، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء - فحارب العلم والفلسفة والأدب والفن . وجاء بالتصوف الشرقى الموهن » ، وحول

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة - الجزء الثالث ، من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، او الحضارة الرومانية) - ترجمة محمد بدران - الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٥٥ ، ص ٤٠٤ .

أفكار الناس ،عن واجبات هذا العالم ، ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ، واغرائهم بالجرى وراء النجاة الفردية ، عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية ، بالإخلاص للدولة ، والتفانى فى الدفاع »(١) .

ولم يكن غريباً ،أن يهرب الناس من المسيحية الحقة ، التى تباعد بينهم وبين أسباب الاستمتاع بالحياة ، إلى مسيحية يونانية / رومانية ، تمكنهم من هذا الاستمتاع .

وهذا هو موضوع الفصل التالى .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٨ .

الفصل الرابع

الحضارة الغربية المعاصرة

تقديم :

ظهرت المسيحية فى الشرق ، وقد كان خاضعا لسيطرة الرومان ، فى عصر توسعهم الامبراطورى ، فى وقت كان لابد أن تظهر فيه ، شبيه بذلك الوقت ، الذى ظهرت فيه اليهودية . فقد ظهرت كل منهما ، فى وقت وصل فيه الثراء المادى حدا ، دفع بالملكية فيه ، إلى أن تدعى الألوهية ، وأن تفرض ظلها الثقيل على رقاب الناس ، فكانت انتكاسة بشرية ، لابد لها من مبعوث سماء - ظهرت فى عهد الدولة الرومانية ، وعلى وجه التحديد ، « فى عهد الإمبراطور الرومانى أوغسطس سنة ١٤ م ، عقب فراغ طويل المدى ، من الجدب الدينى لبنى إسرائيل » (١) ، « فى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية ، واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ، ومظاهر خاوية ، لاروح فيها » (٢) ، وفى وقت ضيعت فيه (الجمهورية) فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إله ، وقررت عبادته مع الآلهة ، ورصدت له شهراً فى السنة ، لا يزال معروفا باسمه إلى اليوم » .

« وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون ، مع السلطان

---

(١) ابراهيم خليل احمد : محمد ، فى التوراة والانجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبة الوعى العربى ، ص ٨٠ .

(٢) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ ؛ ص ٦ .

المطلق ، وضاع النظام ، مع التفاوت البعيد ، بين الحاكين والمحكومين »(١).

ووسط هذا العنف الدنيوى ، اليهودى / الرومانى ، و « فى وسط هذه المادية الغليظة ... لم يكن الرفق هنا لينفع فى طرق الحديد البارد »(٢) ، وكان لابد من الارتماء فى الاتجاه المضاد ـ اتجاه الروح ، « لتحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص » (٣) .

ولم يكن الطريق أمام المسيحية ممهداً ، والحال هذه ، لحوربت ، وحورب معتنقوها ، من اليهود ، ومن الأباطرة على السواء ، حربا وصلت إلى حد التآمر المعروف ، على رسولها عليه السلام .

والتاريخ الطويل للأديان ، يدلنا على أن ضراوة الحرب التى تتجه إلى الأفكار ، بما فى ذلك الأفكار الدينية ، تكون من أسباب انتشار هذه الأفكار ، ومن أسباب تعميقها ، وتثبيت أقدامها .

وإذا كانت تلك القاعدة ، تنطبق على كل الأفكار والأديان ، فهى أكثر انطباقا على المسيحية ـ ذلك أن هناك (واقعا ماديا) مؤلما أشد الإيلام ، كان يدفع إلى اعتناقها ، وهو « كثرة المظالم ، التى لقيتها شعوب هذه البلاد ، من الأباطرة الرومان ، حتى اضطرت الامبراطورية الرومانية ـ بعد قرنين من الزمان ـ إلى الإعتراف بها دينا رسميا للدولة ، تقربا إلى قلوب الناس ، وحلا لمشاكلهم (أى مشاكل الأباطرة) السياسية . ولكن الاعتراف بالمسيحية

---

(١) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ وكشوف العصر الحديث — رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) — يناير ١٩٦٨ ، ص ٦١ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : الله .. والانسان ، قضية الألوهية .. بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٣٦٢ .

(٣) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٢١ .

لم يقربهم من القلوب ، ولم يحل مشاكلهم ، امام تلك القوة، التى كانت نامية وقتها - وهى قوة الجرمان »(١) ، الذين أقاموا بعض الممالك لهم بالفعل ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م ، « مما أدى إلى انكماش الحضارة الرومانية تدريجيا ، من إيطاليا ، وغاليا (فرنسا) ، وانجلترا ، وغيرها من البلاد ، التى خضعت للرومان. أيام سطوتهم »(٢) .

يضاف إلى ذلك ، أن الكنيسة فى هذا العصر المضطرب ، كانت تمثل « نوعا من السلطة ، يوفر الأمن والاستقرار للناس »(٣) ، وأن الجرمان الغالبين - البرابرة - قد حاربوا « الحضارة الوثنية الرومانية . كما حاربها المسيحيون . وهذا يفسر لنا المودة، التى توثقت عراها، بين الكنيسة والمتبربرين ، وكيف وجدت المسيحية أرضا خصبة، بين الشعوب الجرمانية »(٤) .

ويضاف إلى ذلك أيضاً - وهذا هو الأهم والأخطر - تلك القدرة المنقطعة النظير ، التى استطاع بها رجال الكنيسة ، أن (يطوروا) فى (صلب) العقيدة المسيحية ، لتناسب (كل عقيدة) وثنية ، فى الشرق وفى الغرب ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ١٦٦ .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية ، واثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ ، ص ٣٧ .

(٣) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية ، فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٦٦ .

(٤) الدكتور احمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ ، ص ٨٣ .

جذورها التاريخية :

كان القرن الرابع الميلادى ، هو القرن الذى وضعت فيه الجذور التاريخية للحضارة الغربية المعاصرة ، ففيه تم « اعتراف الامبراطورية » بالديانة المسيحية سنة ٣١٣ ميلادية ، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية ، سنة ٣٣٠ ميلادية ، وازدياد خطر الجرمان على كيان الإمبراطورية الرومانية ، عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ميلادية ، واتخاذ المسيحية دينا للامبراطورية سنة ٣٠٢ ميلادية ، ثم تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى قسمين ، شرقى وغربى ، سنة ٣٩٥ ميلادية .

فالقرن الرابع إذن ، يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه ، مختلف العناصر الأساسية ، التى شكلت تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . وهى الكنيسة ، والجرمان ، والإمبراطورية «(١) .

ورغم ذلك ، فقد كانت الخطوط العريضة للمجتمع الغربى ، (تتجمع) منذ القرن الأول الميلادى ، وإن اكتملت هذه الخطوط ، واتخذت شكلها ذاك ، فى القرن الرابع .

ذلك أن السيد المسيح مرسل إلى بنى إسرائيل ، دون غيرهم ، وأن ما أتى به - كعقيدة - (مفصل) عليهم ، دون غيرهم ، وهاهو يقول ، موجها حديثه إلى تلاميذه :

— « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى ، إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٢) .

ولكنه وجد من بنى اسرائيل ، الذين أرسل اليهم ، دون غيرهم . صدا

---

(١) محمود عبد الرزاق شفشق ، ومنير عطا الله سليمان : تاريخ التربية ، دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية — دار النهضة العربية — ١٩٦٨ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .

لا مثيل له ، لدرجة أنه ـ وهو الحليم الهادى ـ يضطر إلى أن يصب جام غضبه عليهم ، موجها حديثه هذا مرة إلى قادتهم الدينيين ، الذين ضللوهم ، وقادوهم إلى محاربته ، ومرة إلى مدينتهم المقدسة ـ فهو يقول لقادتهم :

— « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لأنكم تبنون قبور الأنبياء ، وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون : لو كنا فى أيام آبائنا ، لما شاركناهم فى دم الأنبياء . فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء . فاملأوا أنتم مكيال آبائكم . أيها الحيات أولاد الأفاعى : كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ »(١) .

ثم هو يقول لمدينتهم المقدسة ، ومن فيها جميعاً :

— « ياأورشليم . ياأورشليم . ياقاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً »(٢) .

ولكن تلاميذه ، وتلاميذ التلاميذ ، لم يرضوا بما رضى هو به ، من تفويض الأمر إلى الله فيهم ، فاضطروا « من أجل إحياء دعوته ، إلى نقلها من أرض اليهود ، إلى الشعوب الوثنية ، المحيطة بها ، كالرومان واليونانيين وغيرهم ، ورغبة من هؤلاء المبشرين ، فى نشر الدعوة المسيحية بين تلك الشعوب الوثنية ، وخوفاً من أن تجد بين هذه الشعوب ، نفس المصير الذى وجدته بين اليهود ، اضطر المبشرون المسيحيون ، إلى تطعيم المسيحية ، ببعض

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الثالث والعشرون : ٢٩ — ٣٣ .

(٢) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الثالث والعشرون : ٣٧ ، ٣٨ .

الطقوس والعادات والشعائر ، التي وجدوها في تلك الشعوب الوثنية »(١) .

« وهكذا بمرور الوقت ، وتعاقب الأجيال ، أخذت الأحكام الإلهية تتغير ، لتحل محلها أحكام أرضية »(٢) ، وتأثرت العقيدة المسيحية بذلك ، بالثالوث المقدس عند قدماء المصريين(٣) ، كما تأثرت بالثالوث الهندى(٤) - كما تأثرت - في مسألة الصلب - بالديانات الهندية واليونانية(٥) ، وبالديانات الوثنية ، المنتشرة في جميع أنحاء العالم وقتذاك(٦) .

ومن هنا كانت هناك أكثر من مسيحية ، لا مسيحية واحدة ، منذ الأيام الأولى لها ، وكل مسيحية بيننا اليوم تدعى أنها وحدها الحق ، وأن ماعداها باطل وكفر . . ولازالت هذه المسيحيات المختلفة ، تعيش بيننا اليوم ، بل إن عددها زاد ، بانقسام الكنيسة الكاثوليكية ، إلى كاثوليك وبروتستانت ، ثم بانقسام البروتستانت ، إلى لوثريين ، وكالفنيين ، وزونجليين ، وغيرهم .

---

(١) محمد مجدى مرجان : الله واحد أم ثالوث — دار النهضة العربية ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ . وارجع كذلك الى :
— كتاب البراهين العقلية والعلمية ، في صحة الديانة المسيحية — تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين — ترجمة حبيب أفندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ ، ص ٤٥٧ .
— ابراهيم خليل أحمد (مرجع سابق) ، ص ١٢ (من تقديم المؤلف) .

(٤) محمد مجدى مرجان (مرجع سابق) ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٥) كتاب البراهين العقلية والعلمية ، في صحة الديانة المسيحية (مرجع سابق) ، ص ٤٦١ (من الهامش) .

(٦) ابراهيم خليل احمد (مرجع سابق) ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد انقسمت هذه المسيحية منذ البداية ، إلى مسيحيتين اثنتين كبريين، تفرعتا — فيما بعد — إلى مسيحيات كثيرة . . هما المسيحية الغربية (الكاثوليكية) ، والمسيحية الشرقية (الأرثوذكسية) ، التى تعنى (الطريق المستقيم) ، وبين الكنيستين — الغربية والشرقية — قامت سلسلة طويلة من الحروب ، ليس هنا الآن مجال ذكرها[١] .

والملامح الأساسية للمسيحية الشرقية (الأرثوذكسية) ، مأخوذة من ديانات الشرق القديمة ، فى مصر والشام والهند والصين واليابان ، على نحو ما رأينا منذ قليل ، سواء من كتابات المسيحيين أنفسهم ، أو من كتابات من تحولوا من المسيحية إلى الإسلام . . وقد رأينا هذه الملامح العامة للديانات الشرقية ، فى الفصل السابق ، فى ديانتين من ديانات الشرق القديم ، وهما ديانتا الهند والصين[٢] ، كما رأينا — قبل ذلك — فى الفصل الأسبق — إشارة عابرة ، إلى ديانة اليابان[٣] .

والملامح الأساسية للمسيحية الغربية (الكاثوليكية) ، مأخوذة من ديانات الغرب القديمة ، كما وجدت عند الإغريق والرومان ، كما وضحناها فى الفصل السابق[٤] .

ولا يمكن أن ننسى — هنا — تأثير الإسلام الدينى والحضارى ، على المسيحيتين ، بعد ظهوره وانتشاره ، على نحو ماسنرى فى الفصل الأخير من الكتاب بإذن الله . ولكننا يجب ألا ننسى هنا ، أن الغربيين ، تعاملوا مع الحضارة الإسلامية ، بروحهم الإغريقية — نفس الروح التى تعاملوا بها

---

(١) خصصنا الكتاب الرابع عشر من السلسلة ، (للمسيحية والمسيح والاسلام) ، وسوف نتعرض لمثل هذه المسائل بالتفصيل فيه باذن الله .

(٢) ارجع الى ص ٦٦ — ٧٥ من الكتاب .

(٣) ارجع الى ص ٦٢ ، ٦٣ من الكتاب .

(٤) ارجع الى ص ٧٦ — ٨٩ من الكتاب .

من قبل ، مع الحضارات القديمة ، التى أخذوا منها ، نتيجة لاحتكاكهم بها ، بسبب التجارة ، التى كانوا يعيشون عليها ، فقد كانوا « على اتصال وثيق ، بالمراكز التجارية الهامة ، فى شمال فلسطين »(١) ، وبمهد الحضارة الشرقية القديمة – مصر ، التى «سرى منها العمران إلى بلاد اليونان »(٢) ، فقد أخذ « الإغريق عن المصريين ، الكثير من معارفهم الدينية والفلسفية والعلمية ، كالفلك والطب والزراعة والهندسة والفنون الجميلة »(٣) ، على نحو ما وضحنا ، عند حديثنا عن (الحضارة الإغريقية) ، فى الفصل السابق(٤) .

أى أنهم أخذوا من حضارة الإسلام ، ما رأوه عناصر مفيدة لهم ، يتمكنون بها من تقوية أنفسهم ، للإجهاز على الإسلام ذاته بعد ذلك ، تماما كما أجهز أجدادهم على مصر ، بعد أن أخذوا ما أخذوه من حضارتها ، فحرموها من استقلالها السياسى ، بسيطرتهم عليها ، ثم حاولوا (أغرقتها) ، أى فرض ثقافتهم الإغريقية عليها ، و « أخفقت عملية الأغرقة فى مصر ، إخفاقا تاما ، مع المصريين واليهود على السواء ، وكان سبب هذا الإخفاق ، أن المصريين فى خارج الاسكندرية ، عضوا بالنواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أو عريهم ، وعلى أساليبهم التى ورثوها ، من أقدم الأزمنة »(٥) .

أى أن الغربيين تعاملوا مع الإسلام تعاملهم مع غيره ، بنفس الروح

---

(١) لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن – ترجمة دكتور عطية عبد السلام عاشور ، ودكتور سيد رمضان هدارة – مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد – رقم (١٠١) من (الألف كتاب) – الجزء الأول – دار الفكر العربى ، ص ١٠٦ .

(٢) أمين سامى باشا : التعليم فى مصر ، بين سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ – مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر – ١٩١٧ ، ص ٤ .

(٣) السيد محمود أبو الفيض المنوفى (مرجع سابق) ، ص ١٠ .

(٤) ارجع الى ص ٧٦ – ٧٩ من الكتـــاب .

(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة – الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٧٨ .

الإغريقية الأنانية الحاقدة ، نفس الروح ، التى فهموا بها المسيحية ،(فهبطوا) بها إلى مستواهم ، بعد أن فشلوا فى أن (يرتقوا) إلى مستواها .

ومن ثم تجمع كل الدراسات ، على أنه لا يمكن فهم الغرب المعاصر وحضارته ، بدون فهم الإغريق وحضارتهم ، فالإغريق — فى نظر هذه الدراسات — هم (الجذور التاريخية) الوحيدة ، للغرب الحديث ، وحضارته (١) .

الملامح العــامة للحضارة الغربيــة :

يرى المرحوم عباس العقاد ، أن هناك تاريخين ، غير متفقين فى بعض الأصول ، وفى كثير من التفصيلات : تاريخ الأمة اليونانية الحقيقية ، وتاريخ الأمة اليونانية ، التى جعلها الأوربيون المحدثون ، عنوانا للفضائل الغربية ، فى مسائل العلم والفن والسياسة والأخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين ، فيما قرروه لهم من نصيب، فى هذه المطالب ، وهذه المزايا .

وبلغ من رغبة الأوربيين، فى ترجيح الغرب كله ، باسم اليونان ، أن فريقا منهم تنكر للمسيحية ، لأنها ثمرة شرقية ، وفريقا منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية ، من طريق بولس الرسول ، وجماعة الفلاسفة المسيحيين ، الذين طبقوا الدين على الفلسفة ، بعد القرن الأول للميلاد » .

---

(١) ارجع — على سبيل المثال — لا الحصر — الى :

— فتحية حسن سليمان (مرجع سابق) ص ٦٥ ، ٦٦ .

— THUT, I.N. : The Story of Education, Philosophical and Historical Foundation; McGraw—Hill Company, Inc., New-York, 1957, pp. 60, 61.

— HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958, pp. 195, 196, 197.

— DEWEY, JOHN : Democracy and Education, an Introduction to the Philosophy of Education; The Macmillan Company, New—York, 1916, p. 106.

« وقد عمد الغرب إلى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان ، لأنه احتاج إليه ، لتدعيم دعوى السيادة والرجحان ، على أمم الشرق ، فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان ، وسيلة إلى تحقير الشرقيين ، واستباحة السيطرة عليهم ، بدعوى الوصاية الطبيعية ، التى تخول المتقدمين من بنى آدم ، أمانة الإشراف ، على تعليم المتأخرين » (١) .

ولم يتشبث الغرب هكذا بالإغريق عبثا ، وإنما تشبث بهم ، لأن كل ما يتحلى به الغربيون من صفات نفسية وعقلية ، إنما ورثوها عن هؤلاء الإغريق ـ فقد ورثها الإغريق للرومان ، ومن الرومان ، أخذ الغرب الحديث كل شىء ، إغريقى الأصل ، رومانى الفروع .

وقد عبر ول ديورانت عن هذه الحقيقة ، حيث يقول ، فى معرض حديثه عن (قيصر والمسيح) : « وكان القانون أخص خصائص الروح الرومانية ، وأبقى مظهر من مظاهرها ، وكانت رومة مضرب المثل فى النظام ، وكانت بلاد اليونان مضرب المثل فى الحرية . ولقد أورثتنا رومة شرائعها ، وتقاليدها الإدارية ، لتكون هى أسس النظام الاجتماعى ، كما أورثتنا بلاد اليونان ، الدمقراطية والفلسفة ، اللتين كانتا أساس الحرية الفردية » (٢) .

والواقع أن أثينا وروما ، أورثتا الغرب الحديث ، ما هو أعمق من الديموقراطية والفلسفة والنظام الاجتماعى ـ لقد أورثتاه (النظرة الدينية) ، التى تحول بها الغربيون المسيحية يوم اعتنقوها ، من ديانة شرقية نقية ، تقوم على

---

(١) عباس محمود العقاد : ابليس (بحث فى تاريخ الخير والشر ، وتمييز الانسان بينهما ، من مطلع التاريخ ، الى اليوم) ـ الطبعة الخامسة ـ نهضة مصر ، للطبع والنشر ـ ١٩٧٤ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثانى من المجلد الثالث (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٣٩ .

توحيد الله ، إلى دين غربى وثنى ، يقوم على عبادة الذات(١) .

كان الإغريق قد أخذوا الأفكار الدينية من بلاد الشرق ، التى احتكوا بها ، وتأثروا بكل شيء فيها ، وأعادوا تشكيلها « بصورة جديدة ، فى أرض يونان » ، « وقد ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليونانى الهلينى ، الذى هو تراث أوربا ، والذى ما زال ممتدا خلال الإمبراطورية الرومانية ، والذى جددته أوربا فى عصر النهضة ، وعبرت عن أنها امتداد له ، وماتزال تؤمن بذلك حتى اليوم » ، « وهو يقوم على الوثنية ، وعبادة الفرد »(٢) .

ومن هذا المنظور الدينى ، ينظر الغربيون إلى غير الغربيين ، نظرة احتقار وازدراء ، نسمع عنها فى قصص (التفرقة العنصرية) المتواترة ، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وجنوب أفريقيا ـ فالعنصرية الضيقة هى السمة الأولى للحضارة الغربية المعاصرة .

ولهذه (العنصرية) جذورها عند الإغريق ، الذين كانوا ينظرون إلى غير الإغريق ، على أنهم برابرة ، على حد تعبير جون ديوى (٣) ، والذين ندد فيلسوفهم الأشهر أفلاطون ، « باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا ، يقر الاسترقاق ، بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة . وينظر أرسطو إلى العبد ، على أنه آلة بشرية » (٤) .

وقد انتقلت هذه العقيدة الدينية الإغريقية إلى الرومان ، فكانوا ينظرون إلى أنفسهم ، على أنهم (شعب الله المختار) ، وعلى أنهم « خلقوا للسيادة والتحكم ، وعلى ذلك فقد حاربوا غيرهم من القبائل والأجناس ، واستعبدوا

---

(١) ارجع الى بعض تفصيلات العقيدة الاغريقية ، ص ٧٨ ، ٧٩ من الكتاب .

(٢) أنور الجندى : الاسلام والغرب ـ دار الاعتصام بالقاهرة ـ ١٩٦٧ ، ص ٣٠ .

(3) DEWEY, JOHN : Democracy and Education; Op. Cit., p. 337.

(٤) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة (مرجع سابق) ، ص ١١٩ .

من انتصروا عليه»(١) .وعلى هذه الدعوى، أقام موسوليني إيطاليا واقعدها ، في الربع الثاني من القرن العشرين .

وقد كان موسوليني معبرا عن هذه (الروح) الهلينية ، أو الإغريقية / الرومانية ، المتعالية ، فيما دعا إليه وما فعله ، في الربع الثاني من هذا القرن ، وهو أمر ينكره المنصفون من الغربيين اليوم ، بوصفه يمثل « النشاز ، لا القاعدة » (٢) في تاريخ الحضارات ، على حد تعبير اشبنجلر ، ومن ثم فإنه لا يعترف « بأي نوع من مركز ممتاز، للحضارة الكلاسيكية ، أو الحضارة الغربية ، على الحضارات » (٣) .

ومن ثم فليس صحيحاً مايدعيه المرحوم الدكتور مصطفى السباعي ، من أن « القوة المادية والعلمية التي وصل إليها الغربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أدخلت في نفوس علمائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، قدرا كبيراً من الغرور ، حتى اعتقدوا أن الغربيين أصل جميع الحضارات ، في التاريخ(٤)- إذ الواقع أنها نزعة موجودة لديهم ، منذ عصور تخلفهم وبدائيتهم ، وبها اقتحموا المسيحية ذاتها ، و « بدلا من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم ، لمعايير القانون الأخلاقي (المسيحي) ، الذي هو — على أية حال — الغاية القصوى لجميع الأديان ، أصبحت (المصلحة) في اعتبار القوم، هي القانون الوحيد المهيمن ، الذي يجب أن تعالج على ضوئه — كافة الشؤون العامة » (٥) .

---

(١) فتحية حسن سليمان (مرجع سابق) ، ص ٧٣ .

(٢) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) الدكتور مصطفى السباعي : السنة ، ومكانتها في التشريع الاسلامي — الطبعة الثانية — المكتب الاسلامي — بيروت — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، ص ٢٢ .

(٥) محمد اسد : منهاج الاسلام في الحكم — نقله الى العربية : منصور محمد ماضي — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثاني ١٩٦٤ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

ومن ثم كان ذلك التناقض الصارخ ، الذى نراه واضحا ، حتى فى الكتاب المقدس ذاته ، منسوبا إلى السيد المسيح ، فهاهو يقول مرة :

— « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض . ماجئت لألقى سلاما ، سيفا » (١) .

ويقول مرة أخرى :

— « جئت لألقى نارا على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت ؟ » (٢) .

ثم يقول :

— « أما أعدائى أولئك ، الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، واذ بحوهم قدامى » (٣).

ويقول ، محددا هؤلاء الأعداء ، الذين يستحقون الذبح :

— « من ليس معى فهو على » (٤) — أى أن غير المسيحين كلهم أعداء له ، وللمؤمنين به . وهو تفسير ، يشهد عليه تاريخ المسيحية الطويل .

ومن يقرأ هذا الكلام ، لا يمكن أن يتصور أن قائله ، هو نفس القائل :

— « سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحدا ، فاذهب معه اثنين . ومن سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منه ، فلا ترده .

سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم :

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح العاشر : ٣٤ .
(٢) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح الثانى عشر : ٤٩
(٣) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح التاسع عشر : ٢٧
(٤) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح الحادى عشر : ٢٣

أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (١) .

والعذر كل العذر ، والحال هذه ، لمن رأى أن المسيح لم يوجد ، وأنه مجرد « أسطورة من الأساطير ، شبيهة بخرافات كرشنا ، وأزوريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيشيس ، ومتراس » (٢) ، لأنه وجد « تناقضا كثيرا ، بين بعض الأناجيل ، والبعض الآخر ، وأن فيها نقطا تاريخية ، مشكوكا في صحتها ، وكثيرا من القصص الباعثة على الريبة ، والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين » (٣) .

ولا يمكن فهم هذا التناقض ، بين (الإنسانية) و (الوحشية) ، إلا في أن المسيحيين أخضعوا المسيحية الوثنية ، فإن « المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها » ، فكانت — بذلك — « آخر شيء عظيم ، ابتدعه العالم الوثني القديم » (٤) — على حد تعبير ول ديورانت .

ويقال إن اليهود ، هم الذين حرفوا المسيحية ، على هذا النحو ، بالاندساس فيها ، بدعوى الإيمان بها ، وأنه « تزعم الفريق الذى تظاهر بالنصرانية وحرفها تحريفا : القديس بولس » (٥) ، الذى حولها « من روح إلى روح ،

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الخامس : ٣٨ — ٤٤ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٥) الشيخ رحمت الله الهندى (١٢٣٣ — ١٣٠٨ هـ) : اظهار الحق — تقديم وتحقيق وتعليق : الدكتور أحمد حجازى السقا — الجزء الاول — دار التراث العربى ، للطباعة والنشر — ١٩٧٨ ، ص ٣٠ (من المقدمات) .

ومن وضع إلى وضع ، ومن نظام إلى نظام ، لايشارك الثانى الأول إلا فى الاسم ، وبعض الطقوس » (١) .

وقد بلور بولس الرسول هذا ، فلسفة المسيحية المحرفة تلك ، فى (صيحته) المدوية ، التى بعث بها إلى أهل غلاطية :

— « أيها الإخوة ، لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة » (٢) .

وهى صيحة ، لا يمكن فهم المسيحية ، كما ظهرت على الساحة الدولية بعد بولس — بدونها ، رغم بعدها عن روح المودة والحب والتسامح ، التى ظهرت بها المسيحية أولما ظهرت ، كما تبدت فى كلام السيد المسيح السابق .

أى أن الملامح العامة والأساسية للحضارة الغربية ، تتخلص فى (الأنانية وعبادة الذات) — نفس السمة التى أقبلوا بها على المسيحية ، فصبغوها بها ، بدلا من أن يصطبغوا بصبغتها ، ويرتقوا إلى مستواها .

وحول هذه الأنانية ، أو عبادة الذات ، دارت عدة محاور ، تشكل فى مجموعها ، الملامح العامة للحضارة الغربية ، كالمادية ، والقسوة ، والغلظة ، وغيرها — مما نفضل إرجاء الحديث عنه ، إلى الصفحات التالية ، من هذا الفصل ، وإلى الفصل الأخير من الكتاب .

منجزات الحضارة الغربية :

لا يستطيع إنسان — مهما بالغ فى خصومته للغرب ولحضارته ، لأى سبب من الأسباب — أن ينكر ما حققته الحضارة الغربية ، من إنجازات ضخمة ، فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية المعاصرة ، سواء للأفراد ، وللمجتمعات ، وللعالم ككل ، على حد سواء ، حيث « أصبح التقدم العلمى يفرض نفسه على المجتمع البشرى كل يوم ، بعد أن كان التطور فيه قديما ،

---

(١) أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام — الطبعة الرابعة — دار القلم بالكويت — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٩ .

(٢) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية — ٩ : الاصحاح الرابع : ٣١ .

يأخذ مئات ، بل آلاف الأعوام » (١) ، وحيث « اصبحت الطبيعة ، أو كادت أن تصبح ، طوع بنان الإنسان » (٢) ، وحيث وصل الإنسان — من خلال تقدمه العلمي — وبآلاته المعقدة — إلى أعمق أعماق المحيطات ، واخترق الفضاء الكوني — إلى الكواكب الأخرى ، واقتحم باطن الأرض .

فلم يعد في العالم سر ، يمكن أن يقف أمام الإنسان المعاصر ، بفضل هذه الحضارة الغربية .

لقد صار كل مجهول معلوما — بفضلها .

وللحقيقة، فإن الفضل كله، لا يعزى إلى الحضارة الغربية المعاصرة، كما رأينا في الفصل الثاني (٣) ، إذ أن ازدهارها ، إنما يعود « ولا شك ، إلى التسلسل الطبيعي للمعرفة » (٤) ، فإن قصة العلم ، هي « قصة تقدم مستمر ، يبدأ أحد النابغين ، من حيث ينتهي الآخر » (٥) .

ورغم ذلك ، فإن الحضارة الغربية يكفيها فضلا ، أنها عملت على (تطوير) الحضارة الإنسانية، التي ورثتها عمن سبقوها، خاصة من المسلمين،

---

(١) لين بول : آفاق العلم — ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة — مراجعة وتقديم الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٠ ، ص ٢ ، ٣ (من المقدمة ، للدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن) .

(٢) الدكتور محمد طلعت عيسى : البحث الاجتماعي ، مبادئه ومناهجه — الطبعة الثالثة — مكتبة القاهرة الحديثة — ١٩٦٣ ، ص ٣ (من مقدمة الطبعة الثالثة) .

(٣) ارجع الى ص ٥٢ — ٥٤ من الكتاب .

(٤) هنري سيمات ، وهارفي هوايت : فيزيقا العصر الذري — ترجمه دكتور فتحي احمد البديوي ، وراجعه دكتور محمود مختار — رقم (٥٢٦) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٤ ، ص ٢١٣ .

(٥) د. م. تيرنر : الكشف العلمي — ترجمة احمد محمود سليمان — مراجعة د. محمد جمال الدين الفندي — العدد (٥) من (العلم للجميع) — دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ص ١٠٠ .

حتى وصلت بها — من خلاله تطورها — إلى ما وصلت إليه تلك الحضارة من ذروة ، لا يمكن ارتفاعها منصف .

وصحيح أن الغرب قد وصل بالحضارة الإنسانية إلى هذه الذروة ، بدافع (السيطرة) على الطبيعة ، و (السيطرة) على العالم ، و (إخضاع) الإنسانية كلها له ، لتحقيق مطامعه ، وإشباع ملذاته ، وإرضاء أنانيته ، ولكن ذلك أمر لا يعنينا هنا ، لأننا سنناقشه فيما بعد ، وإنما الذى يعنينا هنا ، هو تلك (الذروة) . . فى حد ذاتها .

ذلك أن الغرب قد (هدف) إلى السيطرة على العالم ، ولكن (التطورات) العالمية ذاتها ، قد جعلت الغرب ذاته (فريسة) لحضارته ، وما أدت إليه من تخريب فى داخل عالمه ، كما جعلت بلاد العالم الأخرى ، غير الغربية ، التى عاشت تحت السيطرة الغربية فترة طويلة ، (تتمرد) على هذا (المارد) الغربى ، وتضعه فى ركن ضيق ، لا يتعداه .

ولو أننا أمسكنا بالدول المنتجة للبترول ، على سبيل المثال ، كنموذج لهذه البلاد التى سيطر عليها الغرب طويلا ، ويهمه السيطرة عليها ، بسبب قيام الحضارة الغربية على البترول بالدرجة الأولى .. لرأينا نموذجا واحدا من نماذج كثيرة ، تشهد على صدق ما نقول .

وصحيح أن هذا (الانحسار) ، الذى اصاب الغرب ، ناتج بالدرجة الأولى عن (تطاحن) اللصوص — دول الغرب — أنفسهم ، وعن انشطار العالم الغربى إلى معسكرين متطاحنين كبيرين ، أحدهما هو المعسكر الرأسمالى ، والثانى هو المعسكر الشيوعى . . وليس ناتجا عن (نمو) البلاد المستضعفة .. ولكننا يهمنا هنا النتائج أيضاً ، بالدرجة الأولى ، فالتطاحن والانشطار ، ليس إلا نتيجة من نتائج الحضارة الغربية ، بأنانيتها ، وماديتها الغليظة ، وليسا نتيجة (لتمرد) الدول المستضعفة ، على العالم الغربى .

وكل هذه (التطورات) ، الناتجة عن الحضارة الغربية ، قد جعلت من المؤرخين من يرى ، أن « النزعة الاستعمارية فى الدول الغربية » ، التى كانت « فيما مضى ، سبباً لسيطرتها السياسية والاقتصادية على العالم » ، « ستكون مصدر ضعفها واضمحلا لها » ، بعد أن « تنبه العالم، إلى التحرر من هذه السيطرة» وبذلك « فإن روح الاستعمار ، ستكون وبالا على الغرب ، لأن تمسكه بها يكبده الخسائر الهائلة فى الأرواح ، وفى اقتصادياته وميزانياته » ، « وفى الغرب مصدر آخر للضعف والتراجع ، وهو أن ما ابتزه الاستعمار من خيرات الشعوب الشرقية وأموالها ، قد زاد من ترف الغرب ، وتخطى الترف حدوده المعقولة والمقبولة ، فانتشرت الإباحية » : « وكثيرا ماتكون هذه الآفات ، نتيجة للتوسع فى الفتح والسلطان ، وازدياد الثروة والرخاء .

فالدور الذى تسير فيه الدول الاستعمارية ، يشبه أن يكون كدور التراجع والانحلال ، الذى أصاب الإمبراطورية الرومانية ، فى أواخر عهدها »(١) .

كما جعلت هذه التطورات نفسها هؤلاء المؤرخين يرون أن الشرق ، « بتحرره من العبودية والاستعمار ، قد حطم العقبات والعراقيل ، التى كانت تحول دون تقدمه ، وبتحطيمها ، ينفسح المجال أمامه ، لينهض ويقوى ، وينال المكانة الرفيعة ، التى هو محققها ، وواصل إليها بالجد والدأب والمثابرة .

يضاف إلى ذلك ، أن مصادر الثروة الطبيعية ، وفى مقدمتها البترول ، ليست فى الغرب ، بل هى متوافرة أكثر مايكون فى الشرق الأوسط ،

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، تاريخنا القومى فى سبع سنوات (١٩٥٢ — ١٩٥٩) — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٩ ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

ووجودها فى البلدان الشرقية ، سيجعل لها مع الزمن التفوق والمنعة ، ويجعل الغرب عالة على الشرق ، فى هذه الناحية »(١) .

ولا نريد أن نتفاءل هكذا مع المتفائلين ، وإن كان هناك رأى عام عريض من المؤرخين يرى ذلك ، ورأى أعرض منهم ، يرى انتهاء الحضارة الغربية ، سوف نعرض له فى نهايات هذا الفصل ، ولكننا نقول : إن ذلك كله ، صح أو لم يصح ، إن هو إلا ثمرة الحضارة الغربية ، رغم أنفها وأنف من قامت على أكتافهم ، بطبيعة الحال .

كذلك يكفيها فخرا أنها قد جعلت الأرض كلها (قطعة واحدة) ، بعد أن كانت أقطاراً شتى ، لا يعرف كل منها عن سائر الأقطار ، إلا أقل القليل . لقد «غيرت السكك الحديدية والتلغراف والتليفون والصحافة الرخيصة والطبع ، غيرت كل شيء » على حد تعبير جون ديوى ، « وتلاشت المحلية المحدودة ، وتحطمت تماما »(٢) .

وهذا الوضع الجديد ، الذى هو نتيجة للحضارة العربية ، وما حققته من تقدم علمى وتكنولوجى ، ضد نزعة التعالى والتسامى ، التى تقوم عليها هذه الحضارة ، فإن التقدم فى وسائل الحرب قد علم الرجال — على حد تعبير برنارد جا فى — «أن يتعلموا كيف يعيشون متعاونين ، وإلا فسيفقدون سلطانهم على البسيطة ، ويبيدون أنفسهم »(٣) .

لقد «كان تسعة أعشار الكرة الأرضية كما مهملا ، لا يسمع له رأى ، ولا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .

(2) DEWEY, JOHN : Education To-day; G. P. Putman's Sons, New-York, 1940, p. 158.

(٣) برنارد جاف : « صمويل بيربونت لانجلى » — ترجمة الدكتور محمد ممتاز الجندى — الفصل الرابع عشر من : **قادة العالم ، فى العالم الجديد** — الجزء الثانى — مراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٨ ، ص ٤٢٢ .

تقبل منه شكاية ، وكان عشر الكرة الأرضية على الأكثر ، هو الذى يبرم وينقض فى أمور العالم ، بغير مراجعة ، ولاشعور بالحاجة إلى المراجعة» ، « فتغيرت هذه الحالة فى سياسة العالم (١) ، بعد أن « صرنا نعيش فى عصر التعاون بين أمم العالم ، باختيارها ، أو بغير اختيارها » (٢) .

وصحيح أن هذا التعاون ، الذى أدت إليه الحضارة الغربية ، قد سيقت إليه دول الغرب سوقا ، ولم تسر إليه باختيارها ، لأنه ضد طبيعتها ، فقد قامت منذ الإغريق ، على (التعالى) على الغير ، لا على (التعاون) مع هذ الغير . . . ولكنها أدت إليه . . على كل حال .

ويكفيها فخرا — أخيراً — أنها قضت على تلك النظرة المتشائمة ، التى زرعتها نظرية مالتس ، عن المجاعة التى ستهدد العالم ، لو استمر عدد سكانه فى الزيادة ، بنفس المعدل (الرهيب) ، فى الوقت الذى تنمو فيه موارد الطعام ، بنفس المعدل (المحدود) ، حتى لقد دعت الأمم المتحدة « فى سنة ١٩٤٩ ، إلى عقد مؤتمر علمى ، لبحث موارد العالم وخيراته ، وذلك فى ليك سكس » . وقد « اقترحت أن تصحب دراسة موارد العالم ، دراسات مماثلة ، للسكان الذين يستهلكون هذه الموارد » (٣) حيث ظهر لها ما ظهر للجميع وقتها ، أن « مشكلة السكان ، من أهم المشكلات التى تواجه العالم ، فى الوقت الحاضر » (٤) .

---

(١) ب . ج . وودز : التعاون الاقتصادى وأساليبه — الكتاب الثانى من سلسلة « كتب الناقوس » — مراجعة وتقديم عباس محمود العقاد — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣ (من المقدمة ، للأستاذ عباس محمود العقاد) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١ (من المقدمة) .

(٣) توماس مالتس وآخران : مشكلة السكان — ترجمة محمد خزيك — ومراجعة حسين الحوت — العدد (١٠) من (من الشرق والغرب) — الدار القومية ، للطباعة والنشر ، ص ٧٤ (من مقال جوليان هكسلى ، سنة ١٩٥٥) .

(٤) السكان والسياسات الدولية — اشراف فيليب هوسر — ترجمة الدكتور خليل حسن خليل — مراجعة وتقديم الدكتور سعيد النجار — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٣ ، ص ١ (من المقدمة ، للدكتور سعيد النجار) .

لقد استطاعت هذه الحضارة ، أن تجعل زيادة السكان (نعمة) ، بعد أن كان مالثس يتصورها (نقمة)، وان تجعلها مطلبا أساسيا ، فى بلاد عديدة من العالم، حيث تفتقر مجالات عمل عديدة ، إلى الأيدى العاملة — كما استطاعت أن تزيد من مصادر الطعام المختلفة ، زيادة لم يكن يحلم بها ، أشد الناس إغراقا فى الأحلام . . وذلك عن طريق التقدم العلمى والتكنولوجى .

ولم تكن الحضارة الغربية تهدف بطبيعة الحال إلى حل مشاكل الإنسانية الغذائية ، من خلال حلها هذا ، لمشكلة الطعام ، بقدر ماكانت تهدف إلى حل مشاكلها الخاصة ، ومن بينها اتخاذ الطعام وسيلة للإذلال السياسى ، للشعوب المحتاجة إلى الطعام ، كما تفعل الولايات المتحدة فى عالم اليوم ، حيث صار القمح وغيره من المواد الغذائية ، وسيلة من وسائل (الضغط السياسى) على الشعوب .

ولكن المشكلة حلت على أية حال . . . من خلال هذه الحضارة .

افول الحضارة الغربية :

برغم ما حققته الحضارة الغربية من إنجازات، لا يمكن إنكارها ، على نحو ما سبق ، فإنها قد وصلت بالرجل الأبيض إلى نهايته المحتومة ، على حد تعبير محمد قطب، « لأن حضارته قد وصلت إلى غايتها — على خطوطها المنحرفة — فأخذت فى الانهيار » (١) .

بل إن ول ديورانت نفسه ، قد تنبأ منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، بغزو الشرق للغرب ، فإن « أوروبا فى عصرنا هذا ، تزداد أخذا من فلسفة الشرق، كما يزداد الشرق أخذا من علوم الغرب ، ويجوز أن تنشب حرب

---

(١) محمد قطب : التطور والثبات ، فى حياة البشر — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٩١ .

عالمية أخرى، فتفتح أبواب أوروبا (كما انفتحت اليونان، عند تحطم امبراطورية الاسكندر ، وكما انفتحت روما عند سقوط الجمهورية الرومانية) ، بحيث تتدفق فيها فلسفات الشرق وعقائده ، فثورة الشرق على الغرب ، ثورة متزايدة ، وفقدان الأسواق الآسيوية ، التى كان من شأنها أن تقيم صناعة الغرب وازدهاره ، وضعف أوروبا ، لما يصيبها من فقر وانقسام وثورة ، كل ذلك قد يجعل من هذه القارة المنقسمة على بعضها، غنيمة سهلة ، لديانة جديدة، تجعل الناس يعقدون رجاءهم فى السماء ، ويفقدون الأمل فى الأرض »(١).

يضاف إلى ذلك ،أن دين الغرب ، الإغريقى الرومانى ، القائم على تقديس الذات ، هو الذى دفع بالغرب ، إلى التقدم ، ولكنه دفع بالغربى أيضا إلى الإحساس بعزلته عن باقى الكون ، وشعوره بالانسلاح »(٢)، على حد تعبير كولن ولسن ، مما خلق نزعة الاغتراب عند الشخص »(٣) . « وإن انتشار ظاهرة الانتحار ، والتمرد الجماعى ، والشذوذ الجنسى ، الآن فى أوربا ، لهو مظهر لاغتراب الشخصية عن المجتمع ، وحتى عن ذاتها »(٤) .

أى أن حضارة الغرب كانت تحمل بين طياتها ، منذ البداية ، جرثومة فنائها ، بشكل مأساوى عنيف . وقد تبدت هذه الجرثومة أول ما تبدت ، فى الأساس الذى قامت عليه ، وهو (تقديس الذات) وعبادتها ، حتى انتهت (بتحطيم) هذه الذات ، على نحو ما سبق ، فى صورتين ، تبدو

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الثالث (الهند وجيرانها) مرجع سابق) ، ص ٢٨١ .

(٢) كولن ويلسون : ما بعد اللامنتمى « فلسفة المستقبل » ــ نقلها إلى العربية : يوسف شرورو ، وعمر يمق ــ الطبعة الاولى ــ منشورات دار الآداب ــ بيروت ــ نيسان (ابريل) ١٩٦٥ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور محمد احمد سلامة : علم النفس الاجتماعى ــ الجزء الأول ــ حول النظرية ــ مؤسسة سعيد للطباعة بطنطا ــ ١٩٧٩ ، ص ٥١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

الحضارة الغربية عليهما اليوم ، أولاهما هي تلك الصورة الموجودة في الغرب، حيث (شعار) (الفردية) مرفوع ، ولكن (الواقع) يدل على ضياع « الإنسان الحديث في الجمهور ، على نحو ليس له نظير في التاريخ » - على حد تعبير أشفيتسر ، لأن « الجماعات السياسية والدينية والاقتصادية ، تميل اليوم إلى تكوين أنفسها ، على نحو يكفل أكبر قدر من التماسك الباطن ، مع أكبر قدر ممكن من النشاط الخارجي » .

« إن حياتنا الروحية اليوم كلها ، يجري مجراها في داخل المنظمات . فمن الطفولة فصاعدا ، يمتلىء عقل الإنسان بفكرة النظام ، إلى حد أن يفقد الإحساس بفردانيته ، ولا يفكر إلا بروح الجماعة التي ينتسب إليها ، هو أو زملاؤه » (١) .

لقد صار المجتمع الغربي ، أشبه (بقطيع) كبير ، رغم ما (يدعيه) من (فردية) ، تقوم عليها حياته .

ويقود هذا القطيع الكبير ، في المجتمعات الغربية اليوم ، مجموعة من (القوى الخفية) ، منها « قوة العلم » ، على حد تعبير اليونسكو ، « التي لم يسبق لها مثيل » ، والتي « خلقت طبقة كهنوتية ، وهم رجال العلم ، الذين يستطيعون وحدهم ممارسة أقصى قوة ، تحملها المعرفة العلمية ، وباتت البشرية تعتمد على هذه الطبقة، اعتماداً أكبر بكثير، من اعتماد المجتمعات القديمة على الكهنة ، الذين كانوا يحيطون علما بالخفايا والأسرار »(٢) .

وقد « خلقت قوة العلم ، وقوة التنظيم . في حياة البشرية ، أزمة فكرية

---

(١) البرت أشفيتسر : فلسفة الحضارة (مرجع سابق) ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمي والثقافي — الجزء الثاني — ٣ (التعبير) — اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٢ ، ص ١٧٧ .

وأزمة أخلاقية معا »، « ونشأت الأزمة الأخلاقية، من انهيار كثير من القيم، ومن التصارع بين ما بقى منها »(١) - على حد تعبيرها أيضاً.

ومن هذه (القوى الخفية) ، التى تقود مجتمعات الغرب اليوم، (العصابات) المختلفة (٢).

« وقد فهمت اليهودية العالمية ذلك، فصارت (عصابة) دولية، تمارس دورها الإرهابى المنظم، بشكل قانونى .. فى الغرب »(٣)، على نحو ما هو معروف، حتى صارت هى التى تقوده، « فى العلم والفن ، والاكتشاف والاختراع، وفى السيطرة على هذه الحضارة ، وتملك زمامها ، وتوجيهها فى صالحهم ... »، « حتى أصبحوا العنصر الفعال الرئيسى ، فى قيـــادة الحضارة الغربية، التى ظهرت فى بيئة مسيحية »(٤).

وعندما تؤدى (الأنانية) إلى تهديد الذات على هذا النحو، فإن البديل النفسى لذلك، يكون المناداة بتقوية (الدولة)، وزيادة (صلاحياتها) ، ولو على حساب حريات الأفراد، ليتوفر للأفراد (بعض) الحرية، بدلا من حرمانهم منها كلها.

وعلى هذا الأساس، كانت الاشتراكية فى القرن التاسع عشر، على نحو ما سبق، فى أكثر من كتاب من كتب السلسلة ، ولكنها حطمت الإنسان

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٠ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحــرية ، وقضايا اخرى — الكتاب السابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يناير ١٩٧٩ ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٤) أبو الحسن الندوى : تأملات فى سورة الكهف — الطبعة الثالثة — المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٥ .

تحطيما فى النهاية ، حيث « لا يستطيع أى عبد للماركسية ، أن ينكر أن نقابات العمال ، حمت الطبقة العاملة ، ومنحتها من الحقوق والأجور والامتيازات ، ما لم يكن يحلم به العامل فى روسيا ، بل إن العامل فى أمريكا وبريطانيا ، يتمتع بحريته الشخصية ، أكثر مما يتمتع به سادة الكرملين » (١) .

ولكنها الحضارة الغربية . . التى قامت وهى تحمل بين طياتها ، جرثومة فنائها ، على نحو ما وضحت سابقا (٢) ، وهى نفس الجرثومة التى وجدت من قبل فى حضارة الإغريق ، وعنهم ورثها الغرب ، فأسلمت الإغريق إلى الرومان .

وخير ما نختم به هذا الفصل ، عن الحضارة الغربية الحديثة ، هو ماختم به ول ديورانت حديثه عن الحضارة الإغريقية ، حيث يقول : « وآخر ما نقوله فى هذا المجال ، أن الحضارة لا تموت ، ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد ، فهى تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية . وموت إحدى الحضارات ، كموت أحد الأفراد ، يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى ، فالحياة تخلع عنها غشاءها القديم ، وتفاجئ الموت ، بشباب غض جديد »(٣) .

وأعتقد أن وصول الحضارة الغربية إلى ما وصلت إليه ، يمهد للحديث عن الإسلام وحضارته ، فلقد « شهد التاريخ الإنسانى — فى رأى توينبى — نحو عشرين حضارة ، منها ست عشرة ، ذهبت مع الريح ، كأن لم تغن بالأمس ، وبقيت هذه البقية القليلة من حضارات ، تحاول أن تثبت أقدامها

---

(١) عباس محمود العقاد ، واحمد عبد الغفور عطار : الشيوعية والاسلام — الطبعة الثانية — مطابع دار الأندلس للطباعة والنشر — بيروت — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ٤٥ .

(٢) ارجع الى ص ١١٠ — ١١٣ من الكتاب .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٢١١ .

فى الأرض، لئلا تزول، وبينها حضارة واحدة، واثقة بنفسها، شامخة برأسها، راسخة بجذورها، هى الحضارة الغربية . . » على أن هذه الحضارة الغربية نفسها ، قد أخذت اليوم تغوص بأقدامها ، فى وحل الطريق ، بما يعترضها وما يكتنفها من مشكلات ، انبثقت من طبيعة تكوينها ، لكنها مازالت فى حيويتها ، ولها من القدرة — بعلومها وفنونها — ما يمكنها من تناول هذه المشكلات الطارئة عليها ، بمعالجات تزيلها ، أو تخفف من حدتها »(١).

ولكن مشكلات الحضارة الغربية ، يبدو أنها صارت(مستعصية) ، مما يفسح المجال لحضارة جديدة . . يرى المفكرون الغربيون — على نحو ما سنرى فى الفصل الختامى من هذا الكتاب — أنها — لأسباب كثيرة . . ستنبع هنا : فى الشرق ، ولو أنهم يقصدون بالشرق، عكس ما نقصده نحن .

فالشرق عندهم ، هو الصين واليابان والهند ، والشرق عندنا ، هو الشرق الإسلامى ، على نحو ماسنرى فى الفصل التالى

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر — الطبعة الأولى — دار الشروق — يناير ١٩٧٦ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

الفصل الخامس

الحضارة الإسلامية

تقديم :

في ظروف شبيهة بظروفنا الدولية اليوم ، ظهر الإسلام ، وبدأت حضارته في الظهور .

كانت الحضارة العالمية ، قد وصلت إلى طريق مسدود ، كذلك الطريق الذي وصلت إليه حضارة الغرب اليوم .

وكان الذي أدى بهذه الحضارة ، الرومانية والفارسية ، التي ظهر الإسلام وقتها ، إلى هذا الطريق المسدود ، هو نفس (الجرثومة) ، التي أدت بحضارة الغرب اليوم إليها . . جرثومة الوثنية ، التي ترجمت إلى لون من ألوان (عبادة الذات) .

بل إن أسوالد اشبنجلر، يلاحظ أنه في الوقت الذي ظهر فيه الإسلام في الشرق ، كانت هناك انتفاضة في الغرب ، ضد الشرك والوثنية ، تمثلت في تحطيم التماثيل والصور الدينية من الكنائس ، ويرى أن الدافع إلى ذلك ، كان الإصلاح الديني ، الشبيه بما فعله مارتن لوثر ، في القرن السادس عشر ، بعد أن تحجر الدين المسيحي ، فإن « هذا الدافع العميق ، الذي أثار العواصف الإسلامية والبيزنطية ، التي عصفت بالتماثيل والصور الدينية ، وسحقها سحقة عنيفاً (ويلاحظ أن كلا من العواصف البيزنطية والإسلامية ، هبت في القرن السابع) ، هو الدافع أيضاً لحركتنا في الشمال البروتستنتي ، والمشابهة

لتينك الحركتين ، شبها قوياً » (١) .

ولم تكن (الحركات الدينية) وقت ظهور الإسلام ، بقاصرة على الفرس والروم ، فلقد كانت الجزيرة العربية - وقت ظهوره - « أرقى البيئات حضارياً » (٢) ، برغم بعدها عن نفوذ الفرس والروم معا . و« كان العرب فى الجاهلية ، على جانب كبير من الثقافة والمعرفة ، فقد ذكرت عنهم الأمم القديمة ، كاليونان والرومان والبابليين والآشوريين ، الشيء الكثير »(٣) .

ولكن هذه الحضارة العربية — كان يشوبها ، ما يشوب حضارتى الفرس والرومان ، من مرض ، فقد كانت تنهش فى جسدها جرثومة الشرك - نفس الجرثومة التى كانت تنهش فى جسد الفرس والرومان ، والتى تنهش فى جسد الحضارة الغربية اليوم . . وإن كان عرض هذا المرض عندهم ، غير عرضه عند الفرس والرومان ،وعند الغربيين اليوم .

ومن ثم كان لابد من رد فعل ، يعيد قافلة البشرية — وقد ضلت طريقها — إلى الطريق .

وكان رد الفعل ، هو ظهور الإسلام كدين ، وظهور حضارته .

ومن ثم كانت السمة الأساسية للإسلام وحضارته ، هو (الإلهية).

---

(١) أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربيـة — الجـزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٣٤٤ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : انبياء الله والحياة المعاصرة — الكتاب السادس من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعـة الأولى — دار الفكر العربى — سبتمبر ١٩٧٨ ، ص ١٠٣ .

(٣) ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية — الطبعة الثانيـة — مطبعة التضامن — بغداد — ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م ، ص ١١٣ .

حضارة ربانيـة :

كـانت (الوثنية) - كما سبق - هى الجرثومة ، التى تسربت إلى (جسم) الديانات السابقة على الإسلام ، سواء منها الديانات السماوية والوضعية ، ومن ثم كان لازما - ليكون الإسلام دين «خير أمة أخرجت للناس » (١) - على حد تعبير القرآن الكريم ، أن تعود (الربانية) إليه ، لتكون أساساً ثابتاً لا ينحرف عنها ، كما انحرفت عنها الديانات السماوية السابقة . ومن ثم كان « الإسلام (حضارة إلهية) ، إذا صح هذا التعبير » (٢) ، ومعنى أنها إلهية ، أن « حضارة الإسلام نشأت باسم الله ، ولم تنشأ باسم العلم ، ومن أجل ذلك ، كان هدف العلم فى الإسلام ، إرضاء الله ، وإسعاد الإنسان »(٣) .

ومعنى أن الحضارة الإسلامية حضارة (ربانية) ، هو أن السير فى طريقها ، تم بأمر الله سبحانه ، لحكمة أرادها ، ومعنى أن الحضارات الأخرى غير إلهية ، هو أن السير فى طريقها ، قد تم لتحقيق غرض آخر ، من أغراض الحياة الدنيا ، كتحقيق الذات ، أو السيطرة على الطبيعة ، أو على الغير ، على نحو ما رأينا عند حديثنا عن الحضارة الغربية ، فى الفصل السابق (٤) .

وقد تكون (نتيجة) الحضارتين ، الإلهية وغير الإلهية ، تحقيق التقدم ، ولكن (دافع) الحضارتين ، لابد أن يكون مختلفا ، ولابد أن يكون لهذا الاختلاف صداه ، سواء فى (الاستراتيجية) التى تقوم عليها الحضارة ، وفى (الأهداف) التى تحققها .

---

(١) قرآن كريم : آل عمران - ٣ : ١١٠ .

(٢) محمد الحسنى : الاسلام المتحن (مرجع سابق) ، ص ٩٠ .

(٣) الرسالة القشيرية للامام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى - تحقيق الدكتور عبد الحليم محود ، والدكتور محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٧٢ ، ص ١١ (من التقديم للمحققين) .

(٤) ارجع الى ص ١٠٠ - ١٠٤ من الكتاب .

ولأوضح مدى هذا الاختلاف ، فإننى أبدأ بتوضيح معنى أن الحضارة الإسلامية (ربانية) .وتوضيح معناها ، متصل بفهم (الفكرة الإسلامية) كلها . وتقوم الفكرة الإسلامية فى مسألة (الفعل) البشرى ، على أساس أن الله، قد فتح الحرية « للإنسان ابتداء ، لكى يصنع تاريخه الفردى والجماعى، ولكى يشكل مصيرهما معا ، اعتمادا على ماركب فى وجوده ، من قوى العقل والإرادة ،والانفعال والحس والحركة . . والإنسان بدوره ، عندما يستخدم حريته ، لصياغة الحدث ، وتوجيه المصير ، إنما يعتمد على مقدمات ، لايمكنه بحال الاستغناء عنها : الزمن ، التراب ، ثم التعاليم والنظم والقيم والأعراف والتقاليد ، وضعية كانت أم دينية . ويبلغ من التناغم والتداخل والتشابك ، بين إرادة الله وإرادة الإنسان — على خلاف النظرة الغربية ـ حداً يصعب علينا معه ، التفريق والفصل والقول ، بأن هذا من عمل الله ، وهذا من عمل الإنسان ، وإن كانت القاعدة الأساسية ، التى يجب ألا تغيب عن أذهاننا لحظة ، أن (الكل) من عمل الله » . « إلا أن عمل الإنسان ، من خلال العلاقات الكونية الشاملة ، يمتلك حريته الكاملة ، فى الصياغة والتخطيط والتنفيذ ، واستغلال النتائج »(١) .

« والنتيجة التاريخية ، التى ترتبها المشيئة الإلهية ، على التجربة الفردية أو الجماعية ، إنما تجىء منبثقة عن طبيعة التجربة ،مشكلة بشكلها ،حاملة بصماتها ، مستمدة غذاءها ودماءها ، من عجينتها وشرايينها ، وهذا هو العدل ، بمفهومه الدقيق الكامل » (٢).

فإذا كان الكل يسير (بإرادة الله) ، فإن إرادة الله تلك ،لا تنفى (إرادة) البشر ،ومن ثم مسئوليته عما يفعل ، « وما دام العبد لا يطلع على علم الله ، وما قدر له فى الأزل ، وما تعلقت به إرادة الله سبحانه ، وما لم تتعلق به ،

(١) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (مرجع سابق) ، ص ١٣٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

فإن أعماله التى تصدر عنه ، تكون عن إرادة لها ، وقصد إليها ، واختيار وحرية فى اقترافها ، والقيام بها » (١) .

وهكذا لا يعنى أن حضارة الإسلام حضارة (ربانية) ، أنها تتم بيد الله سبحانه ، بمعزل عن وعى البشر ، وإنما معناه أنها تتحقق (بجهد) البشر وإرادتهم وسعيهم وكدهم وخطئهم وصوابهم ، « فالحياة كلها عبادة ، والأرض كلها مسجد » (٢) — على حد تعبير محمد الحسنى .

وفى كتابنا الأسبق من كتب السلسلة ، خصصنا (للربانية) فصلا كاملا ، من فصول الكتاب الخمسة ، رأينا فيه أن « معنى (الربانية) ، ليس بمعزل عن معنى (الإنسانية) » ، « وإنما المعنيان متداخلان ، لأن الربانية هى وحدها التى ترفع من الإنسانية ، إلى الدرجة العالية ، الجديرة بالإنسان » (٣) .

وإذا كان الله هو الذى يرزق عباده ، على نحو مايتردد كثيراً ، فى كتاب الله الكريم ، فإن « تكفل الله رزق عباده ، إنما هو فى إبداعه موارد الرزق فى الكون ، وأسباب كسبه فى الإنسان ، وفى تنظيمه لتوزيع هذه الأرزاق ، عن طريق الأديان والشرائع . . وعلى الإنسان الإفادة من نعم الله ، المادية والروحية ، لإحسان كسب هذه الأرزاق ، وإحسان تداولها واقتسامها » (٤) .

---

(١) الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٨ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) محمد الحسنى (مرجع سابق) ، ص ٩٢ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : الملامح العامة للمجتمع الاسلامى — الكتاب التاسع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٨٠ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) ميرزا محمد حسين : الاسلام وتوازن المجتمع — ترجمة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الاسلامية) — دار الثقافة العربية للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م ، ص ١٦ (من الهامش ، للمترجم) .

ومن ثم ، فإن معنى أن الحضارة الإسلامية حضارة (إلهية) ، هو أنها حضارة (بشرية) أيضاً ، إلا أن (البشر) الذى يضطلعون بها ، يؤمنون (بمثل عليا) ، غير (المثل العليا) التى يؤمن بها غير المسلمين ، ومع ذلك ، فإن هؤلاء المسلمين يعيشون فى مجتمع ، صحيح أنه إسلامى ، ولكنه أيضاً بشرى ، ومن ثم لا يمكن تصوره « خاليا من كل عيب ، نظيفا من أى فساد ، نقيا من أى زيغ ، وانحراف فى العقيدة والمسلك » ، ولذلك فإن « واقع المجتمع الإسلامى ، الذى أوجده محمد عليه السلام ، واستمر قرونا طوالا من بعده ، متميز المعالم والحضارة والشخصية والاتجاه ، كان فيه عصاة وبغاة ، ومنافقون وفاسدون » ، « ولكن العبرة بسيادة الشريعة ، فى العقيدة والأنظمة ، والأعراف والتقاليد ، والاستهداء بالكتاب والسنة ، فى استنباط الأحكام والتطبيق ، والحكم لمجموع الأمة ، التى لا تعرف غير الإســــلام قانونا وشريعة ، ومرجعا وسيادة ، تعود إليها فى هدى المنحرفين إلى الصواب ، وقمع الضالين عن الضلال »(١) .

وبالمثل ، فإن المجتمعات الكافرة ، لم تعدم يوما ما ، دعاة إلى الفضيلة ، دعاة إلى الله ، ولكن صوتهم كان يضيع عبثا ، فى زحام الحياة المضطرب ، المتدافع إلى الشيطان .

فالقضية قضية (الصوت الأعلى) ، الموجه للحياة ، برغم صمم بعض الساخرين .

و (الصوت الأعلى) الذى وجه الحياة فى المجتمع الإسلامى ، ووجه حضارة هذا المجتمع ، كان هو صوت الإسلام ، الذى « لا يعزل المصنع عن المسجد ، ولا المسجد عن المصنع والمزرعة والمنجم ، ومكاتب الخدمات

---

(١) الدكتور عبد العزيز الخيـــاط : المجتمع المتكافل فى الاســـلام — مؤسسة الرسالة ومكتبة الأقصى — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ٦ ، ٧ .

ومواقعها . مايؤدى فى المسجد من صلاة ، تترجم آثاره ،فى العمل، فى أى مكان »(١) .

ولذلك فإن « الحضارة الإسلامية ، لم تكن حضارة أخروية ،ولا كانت حضارة أديرة وتكايا وخوانق ، وإن كانت اتسعت لها ، ضمن ما اتسعت له من المنظمات، وإنما كانت حضارة جيوش وفتوح ومستشفيات ومدارس ومكتبات ودور حكمة ، وكانت حضارة فنون وصناعات و .. »(٢)ـ وبفضل هذه الحضارة ، « اتجهت العلوم الطبيعية والفلكية ، إلى مجال البحث التجريبى ، الذى أعوز الفلسفة اليونانية »(٣) .

وحضـــارة انسانية :

ومعنى (إنسانية) الحضارة الإسلامية ، هو أنها رغم (ربانيتها) ، تتم بجهد البشر، بما زودهم به (ربهم) ، من مواهب وملكات وإمكانيات ، فى (جو عام) نظيف ، يتيح لهذه المواهب والملكات والإمكانيات ، أن تأتى بخير الثمار ،وأن تأتى للإنسانية كلها بالخير والأمن والرفاهية ، لا بالتسلط والعدوان والبغى ، ولا بالظلم والهوان ، كما فعلت كل حضارة ، غير حضارة الإسلام ، سواء كانت سابقة للحضارة الإسلامية ، أو لاحقة لهذه الحضارة الإسلامية ، « فالمجتمع الإسلامى ـ بانتسابه إلى الإسلام ـ لم يخرج عن كونه مجتمعاً بشريا ، يتكون من أفراد ، لهم ميول فردية ، توحى بها طبائعهم ،

---

(١) الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة ــ الطبعـــة الثانية ــ مكتبة وهبـــة ــ ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٧ .

(٢) دكتـــور ســـعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الاســـلامى ــ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ــ ١٩٧٨ ، ص ٦٧ .

(٣) دكتورة عائشـــة عبد الرحمن (بنت الشـــاطىء): الشخصية الاسلامية ، دراسة قرآنية (مرجع سابق) ، ص ١٥٩ .

كـكائنات حية ، لها من فطرتها غرائز مختلفة ، بجانب ما تميزت به من قدرة على التفـكير »(١) .

ومن ثم كان واجبا ، الوقوف عند هذه السمة الثانية ، للحضارة الإسلامية، وهى سمة (الإنسانية) ، التى ربما أعوزت كل حضارة غيرها ، كما أعوزتها - أيضاً - سمة (الربانية) .

ونتيجة لذلك ، «كان للحضارة العربية من القوة ، ماجعلها تبقى على الدهر ، وتخلد إلى الأبد . وقد ساعد على ذلك ، وجودها فى موقع وسط بين الأمم ، فلم تـكن كالحضارات التى نشأت فى طرفى العالم ، كالحضارات الهندية والصينية ، التى عاشت فى الشرق ، والحضارات الغربية ، التى عاشت فى الغرب . وقد وصلت هذه الحضارة العربية الإسلامية ، إلى المرتبة التى استطاعت فيها ، أن توحد بين الدين والدولة ، وأن تشرع الحرب لإقرار السلام » .. « وقد أصبح للحضارة العربية (أيديولوجية) خاصة بها ، وعاش أهلها حتى اليوم ، فى ثروة من مبادئها »(٢) .

وتعود هذه الثروة ، إلى أن « الرؤيا الدينية الإسلامية » رؤيا ، « غيبية وحياتية فى آن » . « وبما أن هذه الرؤيا ، لم تـكن تـكملة للجاهلية ، بل نفيا ، فقد كانت تأسيساً لحياة وثقافة جديدتين ، وكانت بما هى تأسيس ، أصلا جامعا ، صورته الوحى ، ومادته الأمة — النظام »(٣) . ومن ثم تعود ، إلى أن الإسلام ، « شىء أكبر من الصلاة ، ومن الصوم .. إنه حركة عالمية

---

(١) الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة — مكتبة وهبة — رجب ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٣٣٧ .

(٢) ناجى معروف (مرجع سابق) ، ص ٥ (من المقدمة) .

(٣) أدونيس : الثابت والمتحــول ، بحث فى الاتبــاع والابداع عند العرب — ١ (الأصول) (مرجع سابق) ، ص ٢٠ .

للتجديد »(١) — وفق الخطوط الإلهية ، التى لم يكتب لها قبله أن تعيش، إلا محرفة ، ومن ثم فقدت قيمتها — أو إلى أنه « حركة إبداعية خالقة ، تستهدف إنشاء حياة إنسانية ، غير معهودة ، فى سائر النظم الأخرى ، التى سبقت الإسلام ، أو لحقته »(٢) .

ولقد كان الذى حافظ على هذه الثروة ، هو استمرار الكتاب والسنة ، حيين فى (ضمير) الإنسان المسلم ، والشعب المسلم ، قبل أن يكونا حيين فى الكتب وحدها ، ولم يكن « المجتمع الإسلامى ، هو الذى صنع الشريعة الإسلامية ، إنما الشريعة هى التى صنعت المجتمع الإسلامى ، وهى التى حددت له سماته ومقوماته ، وهى التى وجهته وطورته ، ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة — كما هو الشأن فى التشريعات الأرضية — إنما كانت منهاجا إلهيا ، لتطوير البشرية كلها ، وصياغتها صياغة معينة ، ودفعها إلى أوضاع ، يتم بها تحقيق المجتمع الإسلامى المنشود »(٣) .

ومنذ البداية ، وضح القرآن الكريم — دستور أمة الإسلام ، صانعة حضارته — أن (المسألة الحضارية) ، ليست حكرا على زمان أو مكان أو جنس . وإنما هى (مداولة) ، على حد تعبير الدكتور عماد الدين خليل ، مستوحيا إياه من التعبير القرآنى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »(٤) .

---

(١) محمد مظهر الدين صديقى : ما هو الاسلام — رقم (٣) من سلسلة (نحو وعى اسلامى) — المختار الاسلامى — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٦٤ .

(٢) سيد قطب : فى التاريخ .. فكرة ومنهاج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٢٢ .

(٣) سيد قطب : نحو مجتمع اسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م ، ص ٦٤ .

(٤) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٤٠ .

وعنده أن « (المداولة) توحى بالحركة الدائمة ، وبالتمدد ، وبالأمل » ، بهدف « (تمحيص) الجماعات البشرية ، وإثارة الصراع الدائم بينها ، الأمر الذى يتمخض عنه تحريك الفعل التاريخى ، وخلق التحديات المستمرة ، أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك »(١) .

كما وضح القرآن الكريم أيضاً ، فى نظره ، « أنه ليس بالقوة والبطش تحيا الأمم وتزدهر ، وتواصل الطريق . إنهما جانب فحسب ، فى المسيرة الحضارية ، وفى فاعلية الجماعة البشرية فى قلب العالم » ، « وما قيمة (القوة العسكرية) ، و (البطش المسلح) ، إذا لم تكن وراءهما نفسية متماسكة ، وأخلاقية عالية ، ونظرة إلى الحياة شاملة ، وعلاقات إنسانية ، وموقع متقدم مسؤول ، أمام الله ؟

إننا فى العصر الحديث ، نلتقى بتجربة (العسكرية الألمانية) المتفوقة ، التى دفعت الحزب النازى ، إلى أن يقود ألمانيا صوب الانتحار ، وهى ما هى عليه من قدرات ، فى ميادين القوة والبطش ، وفى أقل من عقد ، أصبح الرايخ الثالث ، خبراً من الأخبار » (٢) .

ومن هنا قامت الحضارة الإسلامية بداية ، على (الشمول) ، مستفيدة « من جميع جهود بنى الانسان » ، على حد تعبير الدكتور عمر فروخ ، « على أسس أربعة : على الكرامة الإنسانية ، وعلى العدل ، وعلى السلم ، وعلى العلم ، وعلى العمل » (٣) ، فهى حضارة « لا يستعلى فيها عرق على عرق ، ولون

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (مرجع سابق) ، ص ٢٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) الدكتور عمر فروخ : « أثر الرسالة الاسلامية ، فى الحضارة الانسانية » — **مجلة الأزهر** — مجلة شهرية جامعة ، تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، فى أول كل شهر عربى — الجزء الأول — السنة الثانية والخمسون — محرم/صفر ١٤٠٠ هـ — ديسمبر ١٨٧٩/يناير ١٩٨٠ م ، ص ٧٧ .

على لون » (١) ، « فالعنصرية أو العصبية للقبيلة ، أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة ، تنكرها الدعوة المحمدية ، وتعتبرها دعوة جاهلية » (٢) ، ومن ثم كان « الخلفاء ، يضعون العلم ، فوق أية اعتبارات للجنس أو الدين أو مسقط الرأس » (٣) .

ومثلما قامت حضارة الإسلام ، على أساس مشاركة (جميع) القادرين على المشاركة فيها ، بغض النظر عن جنسهم أو لون بشرتهم أو لغتهم . . أو دينهم ، فإن « أعظم هؤلاء العلماء ، كانوا وثنيين (حرانيين) أو مسيحيين أو يهودا ، وعلى الأخص بالمشرق ، كما أنهم ، فى شبه جزيرة الأندلس ، كانوا فى حقيقة الأمر ، من اللاتين أو اليهود » (٤) — فإنها قامت أيضاً على أساس ما أنتجته عقول البشر قبلها ، فى حضارات السابقين ، فى مصر والشام والعراق وفارس ، وعند الإغريق والرومان ، فلم تر أن هذه الحضارات حضارات وثنية ، يجب إعلان الحرب عليها ، كما فعلت المسيحية فى أول عهدها ، وطوال العصور الوسطى ، ولم تقع فى الوقت ذاته تحت تأثيرها ، كما وقع الرومان تحت تأثير الإغريق ، وكما وقعت المسيحية ذاتها فى قبضة

(١) دكتور سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الاسلامى (مرجع سابق) ، ص ١٩ .

(٢) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م ، ص ١٤١ .

(3) RADWAN, ABDU AL-FUTOUH AHMAD : Old and New Forces, in Egyptian Education, Proposals for the Re-construction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trends ; Bureau of Publications Teachers College, Columbia University, New-York, 1951, p. 42.
vised Edition, Langmans, Green and Co., London, 1948.

(٤) الدومييلى : العلم عند العرب ، واثره فى تطور العلم العالمى — نقله الى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى — قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى — جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية — الطبعة الأولى — دار القلم — ١٩٦٢ ، ص ١٤٣ .

الإغريق والرومان معا ، كما رأينا فى الفصل السابق (١) ، وإنما تعاملوا مع الحضارات التى وقعوا تحت تأثيرها ، أو وقعت تحت سيطرتهم ، (بروح الإسلام) ، فأخضعوها لتأثيره ، ولم يخضعوه هو لها . ولم يكن لدى المسلمين أول الأمر ، « تراث حضارى شامخ ، ينافسون به الشعوب الأخرى ، ذات الحضارات القديمة » ، « ومع ذلك ، فقد كان لدى العرب عندئذ ، ما هو أهم ، وهو القدرة على التعلم السريع ، والإفادة من الغير ، وتشرب الاتجاهات النافعة ، فى الحضارات التى قدر لهم أن يلتقوا بها ، ويصادفوها فى طريق توسعهم » (٢) .

ذلك أن هذه الحضارات ، كانت تحوى عناصر ، مما يصلح دنيا المسلم ، مما يجب أن « يتحصل عليها المؤمنون والكفار سواء ، ولا تؤثر بذاتها فى عقيدة القلب ، أو اتجاه الشعور » (٣) ، « وهى فى الوقت ذاته تصلح للتطبيق ، مع كل عقيدة ، وكل تنظيم » (٤) ، حيث « لا تصدم الدين ولا تخدشه ، حينما تخلص فيها النية ، وتتجرد من الحذلقة والادعاء » (٥) .

حضـــارة دنيوية :

من الأفكار الشوهاء ، التى استطاع الغرب أن يزرعها فى النفوس ، منذ الحروب الصليبية ، أن الإسلام — كأى دين — يعمل للآخرة ، ولا علاقة له بشئون الدنيا ، وأنه علاقة بين العبد وربه ، يجب ألا يتجاوزها ، إلى واقع حياة الإنسان .

---

(١) ارجع الى ص ٩٨ — ١٠٢ من الكتاب .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ، ص ١٥ .

(٣) محمد قطب : قبسات من الرســول — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ١٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٥) سيد قطب : التصـــوير الفنى فى القـــرآن — دار الشروق ، ص ٢٠٣ .

وهى فكرة شوهاء ، لأنه ما من دين على الإطلاق ، يمكن أن يعمل، للآخرة ، على هذا النحو ، وإنما كل الأديان جاءت لتنظيم أمور الناس فى الدنيا ، على نحو معين ـ وعلى أساس سير الناس على هدى الدين ، يكون حسابهم يوم القيامة . . فى الجنة أو فى النار .

ومن ثم فالدين — أى دين — ينظم الدنيا ، ولا علاقة له بالآخرة ،لأن الآخرة من (اختصاص)الله وحده ، ولأن قيمتها الوحيدة بالنسـبة لحياة الإنسان ، أنها (تدفعه) إلى أن يسلك على نحو معين ، حدده الله سبحانه لعباده المؤمنين ، الذين يرغبون فى الجنة ، أو يرهبون النار .

أى أن (اليوم الآخر) كفكرة ، يخلق فى نفس الإنسان ، فى حياته الدنيا ، (الوازع) الداخلى ، للسلوك المطلوب دينيا ، أو يخلق فيه(الضمير)، الذى (يحرر) الإنسان بالفعل ، من (الانزلاق) فيما يعيبه ، لأن « الحرية ليست انطلاقا من القيود ، بل هى معنى لا يتحقق فى الوجود إلا مقيدا ، فالحر حقا ، هو الشخص الذى تتجلى فيه المعانى الإنسانية العالية ، والذى يضبط نفسه ، ويتجه بها إلى معالى الأمور »(١) .

ولما كان « الناس ليسوا سواء فى مراعاة حرية الغير » ، « كان لابد أن تقيد حرية بعض الناس بقيود خارجة عن النفس ، بحكم القانون ، الذى يضعه ولى أمر المسلمين » (٢) .

وفى سبيل خلق هذا (الضمير) الداخلى ، لدى الإنسان المسلم ، وتنميته ، كان الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بحيث « يكون هناك رأى عام ، مهذب لاثم ، يحث على الخير ، وينهى عن الشر ، يأمر بالمعروف ، وينهى

---

(١) الامام محمد أبو زهرة : فى المجتمع الاسلامى — دار الفكر العربى ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .

عن المنكر ، فإن الرأى العام ، له رقابة نفسية ، تجعل كل شرير ينطوى على نفسه ، فلا يظهر ، وكل خير يجد الشجاعة فى إعلان خيره » (١) .

والجو العام الفاضل ، الذى يخلقه مثل هذا النظام ، هو الذى يؤدى إلى الحضارة ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول (٢) ، وكان هو الذى أدى إلى حضارة الإسلام ، على نحو ما رأينا ، فيما سبق من هذا الفصل ، عن (الحضارة الإسلامية) ، حيث رأيناه حضارة تتسق فيها الروح والمادة ، وتتوازن فيها النزعات الفردية ، والجماعية ، وتحقق للإنسانية متعة الحياة ، ونعيم الآخرة »(٣).

« وحين كان الغرب الأوروبى يخبط فى ظلمات عصوره الوسطى ، ويمتحن باضطهاد الكنيسة للعلماء ، وإلحاحها فى مطاردتهم ، بالمحاكمات والطرد والحرمان ، كان علماء الإسلام فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، ينطلقون فى طمأنينة ، واثقة من تأييد عقيدتهم للعلم ، وإكبارها للعقل ، فينظرون فى الظواهر الكونية ، بعقلية جديدة متحررة ، ويمارسون التجارب العملية فى المجال العلمى ، فقدموا جديداً أصيلا ، من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية » (٤) .

ولا أكون مبالغا إذا أنا ادعيت ، أن هدف حضارة الإسلام ، هو

---

(١) الامام محمد أبو زهرة : تنظيم الاسلام للمجتمع — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ارجع الى ص ٣٢ — ٣٨ من الكتاب .

(٣) الدكتور حسين فوزى النجار : الاسلام والسياسة ، بحث فى أصول النظرية السياسية ونظام الحكم فى الاسلام — مطبوعات الشعب — ١٩٧٧ ، ص ٧٤ .

(٤) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : القرآن وقضايا الانسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ ، ص ٢١٣ .

فهم الدنيا ، وقوانين الكون ، بهدف السيطرة على البيئة المادية وتذليلها ، بحيث تساعد جماعة المسلمين ، من إعلاء راية الله ، على أرض الله . وهذا هو معنى قوله سبحانه ، فى سورة الأنفال :

ـ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم ، لاتعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله ، يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم »(١).

وهنا نجد أن الجهاد فى الإسلام ، ليس مجرد عمل دينى أو سياسى ، وإنما هو « أمر حضارى » (٢) ـ على حد تعبير ناجى معروف ، إذ أنه لا يتصل (بتفوق) جنس على جنس ، أو دين على دين ، أو بفرض عقيدة الإسلام على غير المسلمين ، أو حتى بمجرد التعبير عن القوة أو إذلال غير المسلمين ، كما حدث فى كل حضارة سابقة ولا حقة ، بما فى ذلك الحضارة المسيحية ذاتها ، رغم ادعائها السلام ، على نحو ما سبق ، فى الفصل السابق (٣) ، وإنما هدفه (ربانى) كحضارة الإسلام ذاتها ، يتخلص فى توفير (الحرية) للإنسان الذى كرمه ربه واستخلفه ، والضرب على أيدى المفسدين ، وأعداء الحرية ، ومصاصى الدماء ، الذين لا يفكرون فى السلم ، إلا وهم ضعفاء ، ولا يرتدعون عن العدوان ، إلا بمنطق السلاح .

ولذلك يتفق المفسرون جميعاً ، على أن معنى الإعداد بالقوة ، فى الآيتين السابقتين ، هو « ما أمكنكم ، من كل ما يتقوى به عليهم فى الحرب ، من نحو حصون وقلاع وسلاح ، وآلات ومصانع ، وتعليم للفروسية ، وفنون الحرب » (٤) — أى كل ما يعين على (هزيمة) الأعداء ، الذى يكرهون

---

(١) قرآن كريم : الأنفال — ٨ : ٦٠ ، ٦١ .

(٢) ناجى معروف (مرجع سابق) ، ص ٣٧٣ .

(٣) ارجع الى ص ١٠١ ، ١٠٢ من الكتاب .

(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف : القرآن الكريم ، ومعه صفوة البيان لمعانى القرآن — الجزء الأول — الطبعة الأولى — مطابع دار الكتاب العربى بمصر — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م ، ص ٣٠٥ .

الإسلام والحق ، ولا يخافون إلا القوة ،أوهو « الرمى » ، على حد تعبير ابن كثير ، فيما يرويه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى معنى الآية « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » (١) ـ أى رمى الرذيلة على حدود البلاد، مثلما رأيناها ترمى من قبل ، فى داخل حدود الإسلام .

ويزيد الشهيد سيد قطب القضية توضيحاً وتفصيلا ، على عادته فى تناول قضاياه، فيرى« أنه يجب على المعسكر الإسلامى ، إعداد العدة دائماً ، واستكمال القوة ، بأقصى الحدود الممكنة ، لتكون القوة المهتدية ، هى القوة العليا فى الأرض، التى ترهبها جميع القوى المبطلة ، والتى تتسامع بها هذه القوى فى أرجاء الأرض، فتهاب أولا أن تهاجم دار الإسلام ، وتستسلم كذلك لسلطان الله ، فلا تمنع داعية إلى الإسلام فى أرضها ، من الدعوة ، ولا تصد أحدا من أهلها عن الاستجابة ، ولا تدعى حق الحاكمية ، وتعبيد الناس ، حتى يكون الدين كله لله » (٢) .

« إنه لابد للإسلام ، من قوة ينطلق بها فى (الأرض)، لتحرير (الإنسان). وأول ما تصنعه هذه القوة ، فى حقل الدعوة ، أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة ، على حريتهم ، فى اختيارها ، فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها . . والأمر الثانى : أن ترهب أعداء هذا الدين ، فلا يفكروا فى الاعتداء على (دار الإسلام) ، التى تحميها تلك القوة ... والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ، أن لا يفكروا فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير (الإنسان) كله ، فى (الأرض)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، للامام الجليل ، الحافظ عماد الدين ابى الفدا ، اسماعيل بن كثير ، القرشى الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ — الجزء الثانى — ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م ، ص ٣٢١ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الثالث (الاجزاء : ٨ — ١١) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٥٣٨ .

كلها .. والأمر الرابع ، أن تحطم هذه القوة كل قوة ، فى الأرض ، تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى، وسلطانها ، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ....

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا ، يتحقق بمجرد استقراره عقيدة فى القلوب ، وتنظيما للشعائر ، ثم تنتهى مهمته ! إن الإسلام منهج عملى واقعى للحياة ، يواجه مناهج أخرى ، تقوم عليها سلطات ، وتقف وراءها قوى مادية . فلا مفر للإسلام ـ لإقرار منهجه الربانى ـ من تحطيم تلك القوى المادية ، وتدمير السلطات ، التى تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الربانى » (١) .

كما لخص عبد الله يوسف على ، كل هذا الكلام ، شارحا الآية ، بقوله : إن المقصود بالقوة، هو كل ما يؤدى إلى كسب الحرب ، وقهر العدو ، « من قوة مادية ، وقوة خلقية ، أو روحية »(٢) .

فهى ليست قوة روحية فقط ، كما يحلو لبعض الانهزاميين و(المتأسلدين) ، أن يصوروا قضية الحرب والسلم فى الإسلام ، وإنما هى قضية (كسب الدنيا) بالدرجة الأولى ، ومن أجل كسبها ، كانت أهمية القوة الروحية والخلقية ، فإن « الديانة الإسلامية ،وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة ، لا يكون القائم بها، صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر فى أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لاريب فيه ، بأن المعتقدين بها ، لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ .

(2) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Our-an, Text, Translation, and Commentary, Volume One Hafner Publishing Company. New-York, U.S.A., 1946, p. 430.

بجميع الملل، إلى اختراع الآلات القاتلة ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون ، كالطبيعة والكيمياء ، وجر الأثقال، والهندسة ،وغيرها ،(١) .

أى أنه المعنى الصحيح (للحضارة) ، كما رأيناه فى الفصل الأول(٢) ، وهو ما لم يتوفر عبر التاريخ ، لحضارة ... كالحضارة الإسلامية .

حضـــارة شاملة :

وبالرغم من أن الحضارة الإسلامية حضارة مادية ، لكسب الدنيا ، على نحو ما سبق ، فإن (ربانية) هذه الحضارة ، توفر لها من الشمول ، مالم يتوفر لغيرها ، فى القديم ولا فى الحديث .

ويبدو شمول الحضارة الإسلامية ، فى جمعها بين « علوم القرآن ، والحديث والفقه ، وعلم الخلاف ، وهو الفقة المقارن » ، وبين « العلوم الطبيعية والرياضة والفلكية والكيميائية والفنون والآداب » ، وبين «العلوم الإنسانية واللسانية » ، « والتشريعات التى تناولت جميع شئون الحياة ، من نواحيها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والقضائية والمهنية .. إلخ »(٣) .

ورغم أن القرآن ، هو كتاب هذه الحضارة المقدس ، إلا أنه بوحيه ، وجدت هذه الحضارة الدنيوية الشاملة ، المتعددة النواحى ، لأنه لم يفصل « للناس نظم الاقتصاد ، أو نظم السياسة، تفصيلا مبرما ، يتبعون نصوصه ، كما فرضت عليهم ، ولا يملكون التصرف فيها بمشيئتهم ، بعد تقريرها بحكم العقيدة ،وأصول التشريع » ، وإنما « بين للناس قواعده ، التى يستقر عليها ،

---

(١) الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره (مرجع سابق) ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) ارجع الى ص ٢٦ — ٣٢ من الكتاب .

(٣) ناجى معروف (مرجع سابق) ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

كل نظام صالح ، يأتى به الزمن ، ولا عليه بعد ذلك ، أن تختلف هذه النظم ، بين أمة وأمة ، فى العصر الواحد ، أو تختلف فى الأمة الواحدة ، بين عصرين » (١) .

أى أن حضارة الإسلام نابعة ، من تلك (الحرية) فى (الحركة) ، التى منحها الإسلام ، للإنسان المسلم ، فى إطار معين من عقيدته .

ولم تكن هذه الحرية فى الحركة ، فى إطار العقيدة ، ممكنة ، بدون (العلم) ، الذى يعد الرسول الكريم طلبه ، « فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ويجعل « العلماء هم ورثة الأنبياء » (٢) ، ويرى بعض الصحابة أنهم هم (أولو الأمر) المقصودون فى قوله تعالى: « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، « وليس (الأمراء) وحدهم هم المقصودين ، والقصدان ثابتان عن الصحابة فى تفسير الآية ، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر ، الذى بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولاته حفظا وبيانا وذبا عنه ، وردا على من ألحد فيه وزاغ عنه » ، « والأمراء ولاته ، قياما وعناية وجهاداً ، وإلزاما للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه » (٣) .

وليس المقصود بالعلم علم الدين وحده ، بل علم الدين والدنيا ، فإن « الإسلام فتح آفاق الكون كله ، أرضه وسمواته ، بجميع عوالمه المتعددة ، أمام العقل ، ليفكر فيه ويتدبره » (٤) ، على نحو ما يشاهد قارئ القرآن

---

(١) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام (مرجع سابق) ، ص ١٥٠ .

(٢) صحيح البخارى ، لأبى عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن المغيرة ابن بردزبه ، البخارى الجعفى — الجزء الأول — دار ومطابع الشعب ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) الامام شمس الدين محمد بن ابى بكر بن قيم الجوزية : الرسالة التبوكية — الطبعة الثالثة — نشرها : قصى محب الدين الخطيب — مطبوعات المطبعة السلفية — ١٣٩٦ هـ ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٤) الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الاسلام — دار ومطابع الشعب — ١٩٦٢ ، ص ٧٩ .

الكريم، بسهولة ويسر . ونتيجة لذلك ، جاء « القرآن بمنهج جديد ، ووجه العقول والأبصار ، إلى عالم الحس والواقع ، وربط بين ما فى الكون ، من مظاهر وآيات » ، بعد « فلسفة اليونان » ، التى قامت « على أساس التفكير النظرى المجرد » ، « فكان فاتحة لعهد التقدم والنور » . وهو الأساس الذى قام عليه العلم التجريبى الحديث »(١)، الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة ، التى افتقرت إلى ما كان لدى الحضارة الإسلامية من شمول ، تفرضه طبيعة الإسلام ذاتها ، بما دعت إليه من بحث وتفكير وتدبر وتذكر ، « ولم يحدث فى التاريخ الإسلامى ، أن عالما يبحث فى الطب أو يبحث فى الفلك ، أو يبحث فى الطبيعة أو فى الكيمياء . . وجد نفسه معزولا عن العقيدة ، أو وجد أن العقيدة تعطله عن البحث العلمى الدقيق » . . « ذلك أن العلم كان (فريضة) إلى الله ، تؤدى ، كما تؤدى الصلاة والصيام والزكاة »(٢) .

« فالعلم فى الإسلام ، يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد ، فمن الواجب أن يعلم ، فهو علم أعم من العلم ، الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر ، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام ، إذ كان خير عبادة لله ، أن يهتدى الإنسان إلى سر الله فى خلقه ، وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ، ومن حوله »(٣) .

ولذلك مجمع علماء الشريعة ، على أن العلم المطلوب فى الشرع ، نوعان :

١ — ما هو فرض عين : أى ما يطلب تعلمه وجوبا من كل فرد مكلف ،

---

(١) محمد شديد : منهج القرآن فى التربية — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) محمد قطب : قبسات من الرسول (مرجع سابق) ، ص ٤٣ .

(٣) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية — الطبعة الأولى (المؤتمر الاسلامى) — دار القلم ، ص ٨٦ .

ولا يعذر أحد فى الجهل به ، وهو ما يحتاج إليه فى إقامة دينه ، وقبول عمله عند الله تعالى ، واستقامة معاملته ومعاشرته للناس » — وهو علم الدين .

« ٢ — ما هو فرض كفاية : وهو كل ما يحتاج المجتمع إليه ، من غير نظر إلى شخص بذاته ، كتعلم الصناعات، التى يحتاج إليها الناس ، وتعلم المهن ، التى لابد للناس عنها » — أى « كل ما يحتاج إليها فى شئون المجتمع ، من تجارة وطب واقتصاد وهندسة وكيمياء وفيزياء وكهرباء ، وكذا صناعة الأسلحة والذخائر ، وجميع أنواع الصناعات » (١) .

وقد قام هذا العلم الإسلامى ، الواسع الشامل ، المتعدد الأغراض والمقاصد ، على أساس الحرية التامة فى البحث والتفكير ، حتى فى مسائل العقيدة ، فقد كان من « الآراء والمدارس الفكرية المتعددة ، التى انتشرت فى أنحاء العالم الإسلامى كله ، كان منها ما يمس العقيدة الإسلامية ، ومنها ما كان يخالف الحقائق الإسلامية ، ومع ذلك فلم تكن هناك سلطة دينية أو سياسية ، تحظر هذه الآراء ، أو تحكم على أصحابها بالإعدام والإحراق ، بل كان علماء الشريعة، يتصدون للرد عليها ، وبيان زيفها وبطلانها ، بالحجة والبرهان » (٢) .

ومن أشهر من نحا هذا النحو المعادى للعقيدة ، ابن المقفع، الأديب المشهور ، ذو المقام فى الأدب العربى ، الذى كان « من أوائل الذين وقفوا من الدين موقفا عقليا ، فانتقد الدين بعامة ، وخص الإسلام ، فانتقد القرآن ، ومافيه من عقائد ، وتصوره لله ، والرسول » (٣) ـ وابن الراوندى ، الذى رأى أن « الرسول أتى بما كان منافرا للعقول ، مثل الصلاة و غسل الجنابة ورمى

(١) الدكتور مصطفى السباعى (مرجع سابق) ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣) عبد الرحمن بدوى : من تاريخ الالحاد فى الاسلام — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٤٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

الحجارة والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران » (١) — وكذا الرازى ، الطبيب والفيلسوف المشهور ، الذى يرى أن « الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، وما دام مصدرهم واحدا ، وهو الله فيما يقولون ، فإنهم لا ينطقون عن الحق ، والنبوة بالتالى باطلة » (٢) — وأن الناس قد تعلقوا بالأديان رغم ذلك ، « من طول الإلف لمذهبهم ، ومر الأيام والعادة ، واغترارهم بلحى التيوس ، المتصدرين فى المجالس ، يمزقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات » ، « حتى صار طبعاً وعادة » (٣) .

ولقد كان لهؤلاء الخارجين على (الخط) الإسلامى ، كما سبق ، من يرد عليهم ، ويدحض شبهاتهم ، دون أن تفتح لهم السجون أبوابها ، كما هو الحال اليوم ، أو تعلق لهم أعواد المشانق . وكان هؤلاء الخارجون ، خروجا على القاعدة كما سبق ، ولم يكونوا هم القاعدة .

كما كانت هذه النزعة المتحررة موجودة ، لدى بعض المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، فى نظر البعض ، ولكن بصورة أقل وضوحا بطبيعة الحال ، وأوضح الأمثلة عندهم على ذلك ، جابر بن حيان ، الذى يبدو أن له وجهين ، يبدوان متناقضين للوهلة الأولى ، « الأول باطنى — إلهامى ، والثانى علمى — تجريبى » (٤) — والذى ركز بحثه ودراسته ، على استحالة المعادن ، أو تحولها ، من خلال اختلاطها بغيرها ، وخرج من دراسته الطبيعية تلك ، بأن الطبائع

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٤) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ٢ (تأصيل الأصول) — الطبعة الثانية — دار العودة — بيروت — ١٩٧٩ ، ص ٧٨ .

« تتغير ، ولكي تتغير ، لابد أن تفقد ماهيتها »(١) .

وكما كانت الحضارة الإسلامية ، شاملة للدنيا والآخرة ، شمولها لعلوم الدين وعلوم الدنيا ، كانت شاملة أيضاً للنظرية والتطبيق .

وإذا كان « بين الفكر والفعل ، أو بين الرأس واليد ، حوار دائم . وقد اتخذ هذا الحوار صورا متعددة ، طول تاريخ البشرية : فكان أحيانا يتخذ صورة عداء متبادل ، أو ترفع من الفكر على الفعل ، أو تضافر وتعاون ، بين عقل الإنسان ويديه »(٢) — فإن الحضارة الإسلامية ، تتميز عن غيرها من الحضارات جميعاً ، على نحو ما سبق ، من استعراضنا لهذه الحضارات ، فيما عدا الحضارة الغربية المعاصرة — بهذا الشمول الواجب ، بين (العقل واليد) ، أو (القول والفعل) ، فالإمام أبو حنيفة ، يرى أن « العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر »(٣) ، وهو في رؤيته تلك ، متأثر تماما (بالفكرة القرآنية) ، التي تستنكر تماما ، سلوك أولئك الذين (يقولون ما لايفعلون) ، على حد تعبير القرآن الكريم .

بل إن من المفكرين المسلمين ، من لايجعل العمل تابعاً للعلم ، كما فعل أبو حنيفة ، وإنما يجعل كلا منهما تابعاً للآخر ، حيث يرى « أن السعادة

---

(١) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٦٥ ، ص ٣٦٠ .

(٢) د. فؤاد زكريا : آراء نقدية ، فى مشكلات الفكر والثقافة — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٥ ، ص ٢٨٧ (من مقال بعنوان : الفلسفة والتكنولوجيا ، فى العالم القديم — منشور فى مجلة الكاتب — نوفمبر ١٩٦٥) .

(٣) الامام الأعظم ، ابو حنيفة ، رضى الله عنــه : العالم والمتعلم — تحقيق محمد رواس قلعجى ، وعبد الوهاب الهندى الندوى — رقم (٢) من (تراث الاسلام) — الطبعة الاولى — مكتبة الهدى بحلب — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ٣٢ .

الأبدية ، لا تتم إلا بالعلم والعمل ، ولا يعتد بواحد منهما ، بدون الآخر ، وأن كلا منهما ثمرة الآخر »(١) .

إنه (حوار دائم) بينهما ، لا ينقطع ، بتبعية واحد للآخر .

وأغلب الظن ، أن الحضارة الغربية الحديثة ، عندما أخذت بهذا الاتجاه ، إنما أخذته من المسلمين ، مع العديد من العناصر الحضارية التى أخذتها عنهم ، لأن الصراع كان على أشده ، بين العقل واليد ، ولم يكن هناك (حوار) بينهما أبدا ، عبر تاريخ الغرب الحضارى كله ، بدءا من الإغريق ، ومرورا بالرومان ، وانتهاء بالمسيحية - ففى كل مرحلة من مراحل الغرب تلك ، لم يكن هناك حوار ، وإنما كان هناك (انتصار) لجانب ، على جانب آخر .

ولكن المنظور الغربى بدأ يتغير إلى القضية ، بمجرد الاتصال بالمسلمين وحضارتهم ، حيث (الحوار) بين الجانبين ، « فالإسلام يرفع من قدر ذوى المعرفة (هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون) . والمعرفة فى الإسلام ، هى تلك التى يتمثلها صاحبها ، تمثلا ينعكس على مبادئه ، ويظهر فى سلوكه » .

« ومما روى عن الرسول من أحاديث ، تتصل بذلك :(تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعملوا) ، وقوله : (إن العلماء همتهم الوعاية ، وإن السفهاء همتهم الرواية) »(٢) .

« والمسلم المكلف — أو الكبير — مسئول عن الإنفاق على نفسه ،

---

(١) حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون — المجلد الأول — طبعة مصورة بالأوفست — مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٥٣ .

(٢) الدكتور أحمد حسن عبيد : « تعليم الكبار ، عبر العصور » — علم تعليم الكبار — الجزء الأول — الجهاز العربى ، لمحو الأمية وتعليم الكبار — ١٩٧٦ ، ص ١٢٨ .

مادام قادرا على العمل . والإسلام يطلب من الشباب ، ألا يكون عالة على غيره : وفى الحديث (خيركم من أكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود ؛ كان يأكل من عمل يده) . ولعل ذلك يلقى ضوءاً على ماعرف عن المسلمين على مر العصور ، من تناوب للعمل ، وطلب للعلم ، فحلقات الدراسة ، ومجالس العلم ، كانت تأخذ مكانها فى بعض الدكاكين ، وخاصة دكاكين الوراقين. وبعض الأدباء ، كانت لهم حرف ، يتعيشون منها ، ولم يعقهم ذلك عن التعلم ، وممارسة الأدب »(١) .

ويربط المرحوم عباس العقاد ، بين الإسلام ، كفكرة ، وبين هذا (الحوار) الدائم ، بين العقل واليد ، فيرى أن الإسلام ليس خيالا ، « يحلم المصلحون المثاليون بتحقيقه فى المستقبل ، إن صح أنه قابل للتحقيق ، فى وقت من الأوقات ، ولكنه واقع مقرر فى كل وقت ، عند المصلح المؤمن، لأنه مقترن بوجود الإله الكامل السرمدى ، فى كل لمحة من لمحات الزمن » .

« وبهذا الإيمان ، يتلاقى فى طبيعة المؤمن القوية ، هذان الخلقان ، اللذان يفترقان ، بين مثالى يخطىء طريق العمل ، وواقعى يرتاب فى إمكان المثل العليا ، وسداد الأريحية الأخلاقية ، فهما خلقان متفقان تمام الاتفاق، فى ضمير المصلح المؤمن، بوجود الكمال المطلق ، فى كل وقت ، وكل جهة، وهو وجود الله »(٢) .

ومن أجل ذلك ، جعل الإسلام « العمل أس المقاصد » ، « وفضله على الانقطاع للعبادة ، وأمر بالجد والإتقان » ، « ولم يجعل جزاء العمل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) عباس محمود العقاد : محمد عبده — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م ، ص ٢٦٨ .

مقصوراً على هذه الحياة ، بل وعد به فى الآخرة »(١) ، ومن أجله أيضاً «كان « عدو التبطل ، باسم العبادة والتدين »(٢) .

ويختلف المنظور الإسلامى إلى قضية (العمل) تلك ، مع المنظور المسيحى ، اختلافا يصل إلى حد التناقض - فنتيجة لعصيان آدم لربه فى الجنة «وأكله من الشجرة المحرمة ، فى المسيحية ، كان على آدم وذريته ، « أن يعملوا فى الأرض ، لكى تحفظ لهم حياتهم (بالعرق تأكل خبزك) . فالعمل هنا فى النظرية الدينية المسيحية ، تكفير عن الخطيئة . أما فى الدين الإسلامى ، فالعمل لا يقصد به عقاب . إنما هو تعمير للدنيا ، فالإنسان خليفة الله فى الأرض ، وبالعمل ، تعمر الأرض ، ويسعد الإنسان »(٣) .

ومن أجل قيام الإنسان بتبعات الاستخلاف — ربما — كان تقديس العمل ، فى الإسلام ، على هذا النحو ، ومن أجل حسن قيام الإنسان بعمله ، ليكون خليفة لله فى الأرض ، كان إعلاء شأن العلم والعلماء — فى الإسلام — ربما .

وأيا كان السبب ، فهو موقف فريد فى الحضارات ، ذهب إليه الإسلام ، وقامت عليه حضارته ، وأخذت به الحضارة الغربية ، فوصلت إلى ذروة ، يعيش الغربيون اليوم فى ظلها ، مع فارق واحد ، هو أنها أدت إلى شقاء الإنسان الغربى ، أكثر مما أدت إلى سعادته . . وما هكذا أدت الحضارة الإسلامية بالإنسان

---

(١) عبد الرحمن عزام (مرجع سابق) ، ص ٥٠ .

(٢) سيد قطب : معركة الاسلام والرأسمالية — الطبعة الخامسة — دار الشروق — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٥٢ .

(٣) صلاح العرب عبد الجواد : اتجاهات جديدة ، فى التربية الصناعية — الجزء الأول (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٦٩ .

المسلم ، لا فى عصور التقدم الحضارى الإسلامى السابقة ، ولا فى عصور الضعف اليوم .

وهو هو الفرق بين الحضارة الربانية فى بدئها ، كما هى حضارة الإسلام ، وبين الحضارة الإنسانية البهيمية فى منشئها — كما هى الحضارة الغربية الحديثة .

وذلك هو موضوع هذا الجزء الأخير — القادم — من الكتاب .

وللمسلم أن يفخر بحضارته

رأينا أن الحضارة حين تقوم ، إنما تقوم على (أكتاف) الإنسان ، صانع الحضارة ، بما حباه الله من مواهب وملكات ، اختصه بها ، دون غيره من خلقه (١) ، وأن الدين فى أية حضارة ، يمثل عمودها الفقرى ، فإذا وجد واتضح فى النفوس والقلوب ، قامت الحضارة ، وإذا خبا نوره ، ضعفت وانهارت (٢) ، وضربنا على ذلك نماذج من حضارات مختلفة قديمة (٣) ، ومن الحضارة الغربية المعاصرة ذاتها (٤) .

والقيمة الحقيقية للدين كما رأيناها ، هى انه يحرر الإنسان من (الذاتية) القاتلة ، ليعيش فى أفق (أرحب) من ذاته ، هو أفق (الجماعة) الإنسانية ، التى ينتمى إليها الإنسان ، إذا كان هذا الدين وضعيا ضيقا محدود الأفق - أو فى أفق الكون كله ، إذا كان هذا الدين سماوياً صحيحاً ، كما هو الحال فى الإسلام . كما أن الدين — بالإضافة إلى ذلك — ونتيجة له — هو الذى يجمع أبناء المجتمع الواحد ، على هدف واحد (مشترك) ، يسعى الجميع لبلوغه .

أى أن بداية الحضارة ، فى (التحرر) من الذات ، ونهايتها تأتى على يد (الأنانية) ، أو الانغماس فى الذات .

---

(١) ارجع الى ص ٣٢ — ٣٦ من الكتاب .

(٢) ارجع الى ص ٤١ — ٥٠ من الكتاب .

(٣) ارجع الى الفصل الثالث كله ، ص ٦٥ — ٨٩ من الكتاب .

(٤) ارجع الى ص ٩٣ — ٩٨ من الكتاب .

والذات هنا ، ذات فرد ، أو ذات أمة ، كما رأينا فى حالات التعصب العنصرى أو القومى، فى عصور التاريخ المختافة السابقة ، وكما نراها اليوم.

وليس من باب الصدفة، أن تكون (الموضوعية) Objectiviy ، هى السمة الأساسية التى يجب أن يتحلى بها المشتغلون بالعلم والبحث العلمى ، فى نظر العلميين المحدثين .

و(الموضوعية)، معناها التجرد من الذات، والحكم على الأشياء كما هى ، لا كما يراها الإنسان بذاته — وهى فى ذلك ، على النقيض من الذاتية Subjectivity ، التى يعتبرها العلميون المحدثون، أكبر آفة ، تهدد العمل العلمى.

ومعنى ذلك أن هؤلاء العلميين المحدثين ، يرون أنه لا تقدم فى مجال العلم ، إلا بالتحرر من(الهوى والضلال) ،على حد تعبير المدرسة العلمية الإسلامية، فى العصور الوسطى ، فى مختلف مجالات العلم ، التى ظهرت فى الإسلام .

ويبقى سؤال يفرض نفســـه ، على هؤلاء العلميين المحدثين ،وهو : هل يستطيع الإنسان أن يكون موضوعيا — أى أن يتجرد تماما من ذاته — حتى ولو كان هذا الإنسان عالما كبيراً ، ولا أقول علميا عاديا ؟

لقد ذهب بعض هؤلاء العلميين المحدثين ، إلى اعتبار العالم ، إنسانا غريبا سيكوباثيا (أى غير سوى من الناحية النفسية) ، والنظر إليه ، على أنه نوع «من (الهواة) ، طراز جديد من الشهداء والقديسين ، ممن ملكوا البصيرة قبل البصر ، وارتضوا التضحية ، بالوقت والمال » (١) .

وقد سبق العلميين المحدثين ، إلى تحديد مثل هذه الصفات ، العلامة العربى المسلم ، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ = ١٣٣١ — ١٤٠٥م)، حين رأى أن(العلمى) بطبعه ، أبعد « عن السياسة ومذاهبها » ، لأنه معتاد

(١) دكتور رءوف سلامة موسى (مرجع سابق) ، ص ٣٠ .

«النظر الفكرى»، والغوص على المعانى، وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها فى الذهن، أمورا كلية»، بينما «السياسة، يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما فى الخارج» (١) — ولو أنهم أخذوا كلامه وشوهوه، على عادتهم فى التعامل مع معطيات الحضارة الإسلامية، حيث صبغوها بصبغتهم الإغريقية الرومانية، على نحو ما سبق، فى أكثر من موضع من الكتاب(٢).

بل إن هذا (المسخ) الغربى للحقائق، قد وصل إلى حد وجود «عقيدة واسعة الانتشار، ترجع التقدم الفنى الرائع، الذى صاحب حضارة شمال أوربا، إلى تلك الصفات الخاصة، التى تميز أهلها، من طول فارع، وشعر أزرق، وعيون زرقاء، وبعد عن روح الفكاهة»(٣).

وكان ينقص أصحاب هذه العقيدة، أن يقولوا: إن الذكاء قاصر على الإنسان الأوربى، الغربى، المسيحى، بوصفه سليل الإغريق والرومان، وبوصفه من (أبناء الحرة)، لا من (أبناء الجارية)، على حد قول القديس بولس، كما استعرضناه فى الفصل الرابع (٤).

ورغم ذلك، ففى الغرب منصفون، كما أن فيه متعصبين لجنسهم الآريين، ويكفى أن أولئك المنصفين، قد ردوا على هؤلاء المتعصبين الآريين، فى هذه المسألة وفى غيرها، ووضحوا أن مثل هذا «العالم المثالى» الذى تصوره لنا القصص، عالما لا حياء عنده ولا عاطفة ولا أخلاق، ولا تردد ولا وطنية،

---

(١) العلامة عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، من كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — المطبعة الشرقية — ١٣٢٧ هـ، ص ٦٣٤، ٦٣٥.

(٢) ارجع بصفة خاصة الى مطلع الفصل الثالث، عن (الحضارة الغربية المعاصرة)، ابتداء من ص ٩٠ من الكتاب.

(٣) لانسلوت هوجبن: العلم للمواطن — الجزء الثالث (مرجع سابق)، ص ٦.

(٤) ارجع الى ص ١٠٤ من الكتاب.

ولا حب ولا كره » ، «مثل هذا العالم ، لا يوجد على الأرض»(١) ، وإنما الموجود ، هو العالم الإنسان ، الذى يحب ويكره ، ويفرح ويحزن ، ويخضع فى وداعة ، للتقاليد الاجتماعية ، ويطيع قوانين البلاد ، وأحياناً يضطر إلى أن ينتهك هذه القوانين»(٢)، وإن كانت لديه (سمات) ينفرد بها عن غيره من أصحاب المهن الأخرى ، شأن كل صاحب مهنة ، فهو يتمتع « بخيال ثورى خصيب »، ولديه «ملكة حب الاستطلاع » ، و « القدرة على مناقشة المألوف ، والخروج عنه ، كلما لزم الأمر »(٣) .

بل إن بعض هؤلاء المنصفين ، قد ذهب إلى أبعد من ذلك ، حين رأى أن بمقدور أى إنسان أن يكون عالماً ، وأن العلماء ليسوا أذكى من غيرهم من خلق الله ، فليست هناك — فى نظره — « عقلية علمية » ، و « لكن توجد من ناحية أخرى ، الطريقة العلمية ، القائمة على التجربة والتحليل ، وتفسير الظواهر » . « ويتوقف استخدام الطريقة العلمية على وجهها الصحيح ، على الاستعداد الفطرى للمرء ، وعلى النظرة التى اكتسبها ، من خلال ثقافته وخبرته »(٤) — وأن « حدة الذكاء وقوته ، ليست ضرورية للبحث عن الحقيقة ، إذ كل ما على الطالب أن يفعله ، هو أن يتبع الطريقة » ، و « أن يبدأ بذهن مفتوح ، ثم يأخذ فى تجميع الحقائق » ، مع « قدرة على الفصل فى الأمور »(٥) .

---

(١) والدمار كمفرت : فتوحات علمية — ترجمة يوسف مصطفى الحاروني — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٥١٣) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٤ ، ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) لين بول (مرجع سابق) ، ص ٢٤٣ .

(٤) والدمار كمفرت (مرجع سابق) ، ص ٢٥٤ .

(٥) د.م. تيرنر (مرجع سابق) ، ص ٧٣ .

ومن ثم فإن (الموضوعية) ، التى يركز المحدثون من العلميين عليها ، ويرونها شرطاً للاشتغال بالعمل العلمى ، لا يمكن أن توجد بشكل كامل ، إذ أن (الذاتية) لابد أن تتخللها ، أراد العالم ذلك ، أم لم يرده .

إن العالم إنسان ، قبل أن يكون عالما ، ومن ثم فإن (بصمته) لا بد أن تكون موجودة ، على كل شيء يتصل به .

بل إن العلميين المحدثين أنفسهم ، يتناقضون مع أنفسهم ، حينما يطلبون من العالم — رغم ذلك — أن تكون له (شخصية متميزة) ، يعرف بها بين غيره من العلماء ، سواء فى تفكيره ، أو فى أسلوب بحثه ومعالجته ، أو حتى فى أسلوبه اللغوى .

ويعتبر (تميز) الشخصية على هذا النحو ، بداية تكون (مدرسة علمية) فى المستقبل ، يحرص العلم عليها ، ليتقدم ، لأنه كلما زاد عدد المدارس العلمية فى بلد ما ، كان ذلك دليل حيوية فكرية ، هى الطريق إلى الحضارة .

ولذلك كان القرآن الكريم أدق ، حين طلب (العدل) - الممكن ، ولم يطلب (الموضوعية) — المستحيلة ، وحين جعل هذا العدل الممكن ، غير قاصر على العمل العلمى ، وإنما مده ليشمل شخصية المسلم كلها :

- « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً »(١) .

- « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٥٨ .
(٢) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٩٠ .

ولا يقف طلب القرآن للعدل ، عند حد ، فهو موقف نفسى عام ، يأمر به ، حتى ولو كان لصالح خصم :

ـ « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعلمون »(١) .

كما يأمر به لو كان ضد قريب :

ـ « . . . وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »(٢) .

كما يأمر به ، حتى ولو كان ضد النفس ـ أو ضد الذات ـ بلغة العلميين المحدثين :

ـ « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً ، فلا تتبعوا الهوى أن تضلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً »(٣) .

وقد انسحب هذا (الموقف النفسى) الإسلامى العام ، على المسلمين وحضارتهم ، فى السلم ، وفى العلاقات الدولية ، وفى الحرب ، وفى تبادل المنافع الاقتصادية ، وتشابك المصالح الاجتماعية ، كما انسحب عليهم فى موقفهم العلمى ، من الحضارات التى صادفتهم ، سواء فى ذلك ، ما ورثوه من حضارات قديمة ، وما احتكوا به من حضارات معاصرة لهم ، كما انسحب عليهم ، فى تزويد الغير بهذه الحضارات ، عن طريق معابر الحضارة المختلفة ، فى

---

(١) قرآن كريم : المائدة ـ ٥ : ٨ .
(٢) قرآن كريم : الأنعام : ٦ : ١٥٢ .
(٣) قرآن كريم : النساء ـ ٤ : ١٣٥ .

الأندلس وصقلية ، ومع القوافل التجارية بين الشرق والغرب ، وغيرها .

ثم انتقل هذا الموقف الحضارى الرائع — العدل — إلى الغرب ، فشوه كما شوه غيره ، فيما يسمونه (بالموضوعية) ، التى يستحيل أن توجد ، على نحو ما سبق .

فللمسلم أن يفخر بحضارته ، التى استمدت معالمها الرئيسية ،من دستور هذه الأمة التى أنشأتها ، وهو القرآن الكريم ،وهو دستور ربانى مقدس، لم تمتد إليه بالتحريف يد ، والتى استطاعت - لأول مرة فى تاريخ البشرية - أن تعدل (مسار) الحضارة الإنسانية ، من (الأنانية) ، التى دمرت كل الحضارات السابقة عليها ، إلى (العدل). الذى جعلته موقفاً حضارياً ، تميزت به ، والذى أخذته الحضارة الغربية الحديثة عنها ، تحت عنوان آخر ، يعكس (حاجة فى نفس يعقوب) ، ويدل على (الزيف) ، الذى تقوم عليه هذه الحضارة ، وهذا العنوان هو (الموضوعية) .

للمسلم أن يفخر بحضارته ، التى لولاها ، بموقفها النفسى الذى حددته، وفرضته على الحضارة البشرية ، ما كان للإنسانية اليوم ، منجزاتها الرائعة ، التى يزهو بها الغربيون ، وتسعد الإنسانية بها فى جوانب كثيرة ، وإن كانت تشقى بها فى جوانب أكثر ، تعود إلى الروح الإغريقية / الرومانية ، السائدة فى الحضارة الغربية ، والتى تكاد تقضى عليها وعلى الغرب معها .

* * *

والقرآن الكريم - دستور الأمة الإسلامية - كان له من الحضارة موقف واضح منذ البداية ، فهو لم يقسم الناس إلى قسمين ، أبناء حرة ، وأبناء جارية ، كما فعلت المسيحية ، على نحو ما سبق ، فى الفصل

الرابع (١) ، ومن ثم لم يجعل الامتياز والتفوق ، قاصرا على أتباعه ، ومن سواهم ، كما فعلت الحضارة الغربية ، المسيحية اسما ، والإغريقية / الرومانية فعلا (٢) - وإنما جعل (الصعود الحضارى) ، (والهبوط الحضارى) ، على نحو ما رأيناهما فى الفصل الثانى (٣) ، مرتبطين (بقانون) معين ، لا يبخس الله فيه أحدا ، مهما كان كافرا ، لأنه سبحانه ، هو رب المؤمنين والكافرين جميعاً :

— « من كان يريد الحياة والدنيا وزينتها ، نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون » (٤) .

— « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » (٥) .

أى أن « التقدم والانحطاط ، يخضعان لقوانين طبيعية ذاتية فى الأمم ، ولا يرتدان إلى مجرد الانتماء إلى الدين . ولا شك أن الدين قد كان سبب سيادة المسلمين وسعادتهم ، وأن الإعراض عنه ، قد أوردهم أعظم المهالك ، وأودى بهم إلى الانحطاط ، لكن لا يكفى أبدا من أجل الترقى من جديد ، الاحتجاج بقوله تعالى (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ، أو قوله (وكان حقا ، علينا نصر المؤمنين) ، بصورة يتوهم بعض المسلمين معها (أن فى الدين سرا روحيا غيرمعقول) ، يمد الآخذين به بالنصر والقوة ، ويعطيهم الغلب والخوارق والكرامات) ! إن قوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى ، وأهلها مصلحون) ، هو الذى ينبغى أن يكون المؤشر الحقيقى

---

(١) ارجع الى ص ١٠٤ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٩٨ — ١٠٠ من الكتاب .
(٣) ارجع الى ص ٤١ وما بعدها من الكتاب .
(٤) قرآن كريم : هود — ١١ : ١٥ .
(٥) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٢٠ .

فى مسألة الصعود والهبوط . فالظلم والإصلاح . هما قانونا الترقى والانحطاط . أما الصلاح ، فليس إلا عمارة الأرض وإدارتها » (١) .

و(إيجابية) الإسلام فى هذا المجال ، على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل ، يبدو فى أنه « لم يكتف بالعبادات ، وما بين المرء وخالقه ، مما يتصل بالعقيدة » ، وإنما « فرض الإسلام على الناس ، أمورا تدخل فى نظام حياتهم فى هذا العالم » . « وما جاء به القرآن من المبادئ العامة لنظام الحياة الدنيا ، جوهرى فى الإسلام ، لسلامة العقيدة ، ولذلك كانت العقيدة السليمة ، والإيمان الصادق ، قوام هذا الدين . . وكانت مصدر النظام الروحى ، الذى يجب أن يقوم الخلق الحسن على أساسه . وكل خروج فى نظم الحياة الاجتماعية على قواعد الخلق ، وعلى النظام الروحى الذى تقوم عليه ، جدير بأن يترك أثره السيئ فى الأخلاق ، وفى العقائد العامة ، وفى الإيمان ، والعبادات المترتبة عليه » (٢) .

وعلى ذلك ، فإن (الاندفاع) فى طريق الحياة ، والتقدم ، والأخذ بالجديد ، يدعو الإسلام إليه ، لصالح المسلمين . بل إن الإسلام ، كان هو الذى فتح الباب على مصراعيه ، أمام الفلسفة ، فى نظر الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم كان هو الذى شجع الفلاسفة فى نظره ، بحيث « ما كان عائقا من عقلاء المسلمين ، ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم . بل ليبادروا إليه . بعد ما رفع القرآن من شأن العقل ، وما وضعه فيه من المكانة ، بحيث ينتهى إليه أمر السعادة ، والتمييز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام (أنتم أعلم بشئون دنياكم) ، وبعد ما سن لنا فى غزوة

---

(١) الدكتور فهمى جدعان (مرجع سابق) ، ص ٢٦٨ .

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٧ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

بدر ، من سنة الأخذ بما صدق من التجارب ، وصح من الآراء »(١) .

ويؤكد وجهة النظر تلك ، ما يراه محمد أسد فى الدولة الإسلامية على سبيل المثال ، من أنها — رغم أهميتها — « لا يوجد (شكل واحد) لها ، « بل إن هناك أشكالا كثيرة ، وإن على المسلمين فى كل زمن ، أن يكتشفوا الشكل الذى يلائم ويحقق حاجاتهم ، شريطة أن يكون الشكل والنظام ، اللذان يقع عليهما الاختيار ، متفقين تماما مع الأحكام الشرعية الظاهرة ، المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع » (٢) — على نحو ما سنرى فى كتابنا التالى من كتب السلسلة بإذن الله ، عن (دولة الإسلام ، والدولة المعاصرة) .

بل إنه يرى أن نمط الديموقراطية ، كما هو مستخدم فى الغرب ، هو أقرب من حيث التطبيق ، « وأوثق نسبا بتصور الإسلام للحرية ، منه بتصور الإغريق القدامى لها ذلك بأن الإسلام ينادى بأن الناس جميعاً متساوون ، من الناحية الاجتماعية » (٣) ، بينما كان (حكم الشعب) عند الإغريق ، يقصد به « على وجه التحديد ، حكومة طبقة خاصة ، لا حكومة الشعب كله » ، « وكانت هذه الطبقة ، مقصورة على سكان الدولة الأحرار ، الذين كانوا لا يزيدون فى العادة ، على عشر مجموع السكان ، بينما كان الباقون ، من العبيد والأرقاء » (٤) .

ولا نود أن نستطرد أكثر من ذلك ، فى مثل هذا الموضوع ، وإنما نخلص منه بسرعة ، إلى ما قصدنا إليه منذ البداية ، وهو ما يراه محمد أسد نفسه ،

---

(١) الأستاذ الامام ، الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد — تعليق السيد الامام ، محمد رشيد رضا — الطبعة الثامنة عشرة — مكتبة القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) محمد أسد : منهاج الاسلام فى الحكم (مرجع سابق) ، ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

من ضرورة العودة إلى الإسلام ، إذا أرادا المسلمون ان يسيروا — من جديد — فى طريق الحضارة .

والمسلمون اليوم أكثر حاجة إلى الإســـلام فى نظره ، منهم فى أى وقت مضى .

ذلك أن العالم الإسلامى « يجد نفسه اليوم ، فى دوامة التيارات الثقافية ، تهدر من حوله ، هذه الأزمات ، سيكون لها الأثر الحاسم ، فى تقرير صلاحية الإسلام للتطبيق ، من الناحية العملية ، لقرون طويلة آتية » .

« إن الحركة فى البيئة الاجتماعية ، إما أن تكون بناءة مبدعة ، أو هدامة مدمرة ، فإذا حاولنا الرجوع إلى حقائق القرآن والسنة ، وعملنا — فى ضوئهما — على صياغة مجار جديدة ، لتفكيرنا السياسى والاجتماعى ، كانت هذه حركة بناءة من النوع الأول . أما الذى نراه فى المجتمع الإسلامى اليوم ، من انحراف نحو الأفكار الغربية ، والنظم السياسية السائدة فى الغرب ، فهو حركة من النوع الثانى »(١) .

ولتكون الحركة من النوع الأول — فى نظره — فإنه « لابد لنا من أن نبدأ فى اجتهادنا من جديد ، بأسلوب إبداعى خلاق ، على ضوء دراستنا الخاصة ، لمصادر الشريعة الأصلية .

إننا إذا ما تناولنا هذه المهمة ، بروح البحث الحر ، فسوف ننتهى حتما إلى نتيجتين هامتين : أولاهما ، أن الشريعة الإسلامية — ولا سيما بالنسبة للأحكام الاجتماعية — ستكتسب مرة أخرى صفة البساطة ، التى طبعها الله ورسوله عليها » ، « وثانيتهما » ، « هو أن جهاز الدولة الإسلامية

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

ووظيفتها ، ليس من الضرورى أن يكونوا متفقين مع أية (سابقة تاريخية) ، إذ أن كل ما نريده من الدولة ، لكى تنال بحق صفة الدولة الإسلامية ، هو أن تدمج فى دستورها ، وأن تستهدى فى أعمالها ، تلك الأحكام الظاهرة ، المنصوصة فى القرآن والسنة ، التى لها علاقة مباشرة ، بحياة المجتمع السياسية »(١) .

فللمسلم أن يفخر بحضارته ، التى بلغت من الأصالة والعمق والقوة - حدا ، صارت معه مطلباً من مطالب الحياة الملحة فى (المستقبل) ، بالرغم من أنها - من الناحية الموضوعية - ترتد إلى (ماض) بعيد ، وبالرغم من أنها - بحكم هذا الارتداد إلى الماضى — مفروض أن يعطيها العالم (ظهره) ، ليعطى (وجهه) كله ، لحضارة الغرب المعاصرة ، بكل بريقها وفنونها . ولكن العالم كله يكتشف أن (البريق) ، إنما هو بريق خاطف ، تضحك به الحضارة الغربية على الغربيين ، قبل أن تضحك به على غيرهم ، وأن (الفتوة)الظاهرة ، ليست إلا (تشنجات) ثور ذبيح ، يوشك أن يلفظ ما تبقى لديه من أنفاس ، وهى تشنجات تخدع السذج والبسطاء ، ولكنها لا تستطيع أن تقنع من لديه قليل من عقل .

وقد عاش الغربيون طويلا ، مخدوعين بمنجزات هذه الحضارة ، مشدوهين ببريقها ، مفتونين بفنونها . . ثم أفاقوا على حقيقتها . . أو على حد تعبير أحدهم — ألبرت أشفيتشر — « إننا نعيش اليوم فى ظل انهيار الحضارة »(٢) ، « ومن الواضح الآن لكل ذى عينين ، أن الحضارة بسبيل الانتحار »(٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .
(٢) البرت أشفيتسر : فلسفة الحضارة (مرجع سابق) ، ص ١١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

أما حضارة المسلم ، التى يحق له أن يفخر بها ، فهى لم تمت يوما ، برغم أفول شمسها الظاهر . إنها حية فى ضميره ، ومن ثم كان (موقفه) من حضارة الغرب المادية . . مترددا أول الأمر . . ثم آخذاً منها فى آخره . . بمنجزاتها . . فهى — فى نظره — (بضاعته ، ردت إليه) ، وليس للغرب من دور فيها ، سوى أنه دفعها إلى الأمام دفعة ، أو دفعات .

والغد — كما تشير دراسات كثيرة — غده وغدها . . غد المسلم . . وغد حضارته ، بعد أن أولت الأيام ظهرها للغرب وحضارته . . كما رأينا فى قول ألبرت أشفيتسر السابق .

* * *

وقد خدع الغربيون بحضارتهم ، لأنها حضارة افتقدت (المثل الأعلى) ، الذى يجب أن تنشده الحضارة . . حينما (تمحورت) حول الذات ، على نحو ما سبق فى الفصل الرابع ، عند حديثنا عن الحضارة الغربية(١) ـ فجعلت من هذه (الذات) ، مثلها الأعلى ، فضلت به وضللت .

أما الإسلام ، فقد قامت عقيدته أساساً ، على هذا (المثل الأعلى) ، وهو الله سبحانه ، وبدون الإيمان بالله سبحانه مثلا أعلى ، لا يكون المسلم مسلما بداية :

ـ « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم »(٢) .

ـ « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »(٣) .

---

(١) ارجع الى ص ١٠٤ من الكتاب .
(٢) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٦٠ .
(٣) قرآن كريم : الروم — ٣٠ : ٢٧ .

ونتيجة (لانغماس) الإنسان الغربى فى ذاته ، مثله الأعلى ، صار شقياً فى ظل حضارته ، بل إنه صار شقياً بسبب هذه الحضارة ، وكانت النتيجة، وصوله بحضارته ، إلى طريق (مسدود) ، لا يمكن أن ينتهى إلا إلى نهاية واحدة ، هى تدميره وتدميرها ، كما رأينا منذ قليل ، فى أقوال الغربيين أنفسهم ، وكما رأينا فى كتابنا الأول من كتب السلسلة ، عند تعليقنا على كتابى ديل كارنيجى Dale Carnegie : (دع القلق وابدأ الحياة) ، و(كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس)(١) .

وهذا الشقاء ، الذى يلاحق الإنسان الغربى اليوم ، برغم تقدمه المادى الواضح ، ومستوى حياته المرتفع ،ورفاهيته التى يحسده عليها ، من لا يعرفه من الداخل . . هو نفسه الشقاء ، الذى وجد مع هذا الإنسان الغربى ، منذ فجر تاريخه ، قبل المسيحية ، وبعدها . . بدونها وبها . . لم يتغير ، وإنما تغيرت طرقه وأساليبه ، أما دواعيه ، فهى هى لم تتغير . . تمحور الإنسان الإنسان الغربى حول ذاته . . أى أنانيته الجشعة القاتلة ـ والأنانية إذا لم يجد صاحبها من يحطمه ، حطم نفسه .

وقد حطمت الأنانية الغربية الكثيرين ... ودفعت بالغرب فى طريق الحضارة الراهنة ، ثم ها هى اليوم ، لأسباب كثيرة — تحطم الغرب ذاته .

ونتيجة لاتخاذ الإنسان المسلم الله سبحانه مثلا أعلى له ، ،كان ذلك (السلام) ، مع النفس ، ومع الغير ، الذى حققته الحضارة الإسلامية ، فى جميع أطوارها ، ومراحل نموها ، والإسلام يحقق ذلك ، على حد تعبير محمد أسد ، « عن طريق قانون إلهى ، هو الشريعة » . « ويرى المؤمن ، أن القرآن والسنة ، يكشفان له جانبا من سنة الله الشاملة الكلية ، فى خلق

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ — ١٥٠ .

الكون ، وبالنسبة للإنسان ، فإنهما يحويان التحديد الواضح ، لما يريد الله منا أن نفعل ، وكيف يريدنا أن نكون .

إن الله يكشف لنا عن إرادته فحسب ، ولكنه لا يجبرنا أن نسلك وفق هذه الإرادة . إنه يمنحنا حرية الاختيار ، ونحن بحكم ذلك ، نستطيع إذا شئنا ، أن نستسلم مختارين لشريعته ، كما نستطيع ، إذا أردنا ، أن نسير ضد أوامره ، وأن نسقط شريعته من اعتبارنا ، وأن نتحمل العاقبة ، لأنه كيفما كان الاختيار ، فإن التبعة علينا » (١) .

أى أنها (الفردية) أيضاً ، هى (محور) التفكير الإسلامى :

— « إن كل من فى السموات والأرض ، إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » (٢) .

ولكن (الفردية) شىء ، و (الأنانية) شىء آخر .

(فالفردية) تعنى احترام (الذات) الإنسانية ، والاعتراف بقيمتها وإمكانياتها ، ولكنها لا تعنى بالضرورة (أنا وحدى ، وبعدى الطوفان) ، كما تعنى (الأنانية) ، التى تقوم عليها حضارة الغرب .

بل إن (الفردية) ، قد تعنى (التضحية) بالنفس ، فى سبيل الغير ، إرضاء لله ، المثل الأعلى للإنسان ، أو طلبا للجنة .. أو تحقيقا للذات نفسها ، ومن ثم فهى قد تكون على النقيض ، من (الأنانية) .

---

(١) محمد أسد (مرجع سابق) ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) قرآن كريم : مريم — ١٩ : ٩٣ — ٩٥ .

وحول هذه (الفردية) ، المتخذة من الله سبحانه (مثلا أعلى) ، دارت حضارة الإسلام ، فأسعدت المسلم بها ، وأسعدت غير المسلم أيضاً ، لأنها قامت على احترام الإنسان (الفرد) ، بوصف الإنسان واجب التكريم لذاته ، بوصفه (خليفة) لله فى الأرض .

وقد كان هذا الموقف الإسلامى (الحضارى) الفريد من الإنسان ، مما جعل (الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) ، على حد تعبير القرآن الكريم (١) ، ومما جعل الساحة تخلو إلا منه ، ومما جعل الحرب تتجه إليه منذ البداية ، لإطفاء نوره .

وعلى ساحة الحرب ضده ، تجمع أعداء الله ، وقد كان بعضهم لبعض عدوا قبله ، ولكن هؤلاء الأعداء ، قد جمعتهم عدواتهم له ، وأملهم المشترك فى القضاء عليه . . .

وقاد هؤلاء الأعداء أول الأمر ، المشركون ، ثم قادهم اليهود .. ثم قادهم أخيراً : أتباع عيسى بن مريم — دعاة السلم والحرب معـــا (٢) ، وورثة الإغريق والرومان ، ناسين جميعا ، أن استمرار وجودهم أحياء ، يعود الفضل فيه إلى الإسلام ، لا إلى غيره ، بمـا وفره لهم من (حرية عقيدة) ، ومن ضمان سلامة وأمن ، ومن رفعه لهم إلى درجة مواطنيهم المسلمين (لهم مالنا ، وعليهم ما علينا) ، وهو مالم يكن له وجود فى تاريخ الفتوح ، قبل الفتح الإسلامى ، وقلما كان له وجود بعد هذا الفتح ، فى غير ديار الإسلام - يشهد على ذلك تاريخ الاستعمار الحديث ، والقائمون به ، فقد كانوا من هؤلاء الأتباع .

وفى مرحلة من مراحل الحرب الطويلة المتشعبة تلك ، بين الإسلام

---

(١) قرآن كريم : النصر — ١١٠ : ٢ .
(٢) ارجع الى ص ١٠٠ — ١٠٤ من الكتاب .

وأعدائه ، كان المسلمون أقوياء ، وفى مرحلة أخرى كانوا ضعفاء ، ولكنهم كانوا دوما مسلمين ، ذوى حضارة متميزة ، ربانية ، لم (يفتنهم) عنها ، ما وصلوا إليه من تقدم حضارى وازدهار مادى ورفاهية - كما لم (يصرفهم) عنها ، ما ألم بهم فى فترات الضعف ، من فقر وفاقة ... واضطهاد سياسى .

فللمسلم أن يفخر بحضارته الثابتة على دعائم راسخة ، تتزلزل الدنيا كلها ، ولا تهتز ، حتى صار الشرق الإسلامى — رغم تخلفه - مزارة للغربيين ، يجدون فيه ، ما افتقدوه فى ظل حضارتهم ، من أمن وطمأنينة ، وسلام مع النفس ومع الغير ، على نحو ما رأينا فى نهايات كتابنا الأول من كتب السلسلة (١) .

* * *

والشرق الإسلامى اليوم يغلى ؛ ففى كل بلد من بلاده (ثورة) ، تختلف (دواعيها) ، من بلد إسلامى إلى آخر ، كما تختلف خطوطها العامة وأهدافها ، من بلد إسلامى إلى آخر أيضاً .

فقد تكون هذه الثورة ثورة عسكرية ، كما هى الحال ، فى معظم البلاد الإسلامية .

وقد تكون هذه الثورة ، ثورة سياسية ، أو اقتصادية ، أو صناعية ، كما هى الحال فى بلاد إسلامية كثيرة .

وقد تكون هذه الثورة ، مجرد (غليان) على مستوى القاعدة الإسلامية العريضة - يعكس هذه الثورات السابقة جميعا ، ويضعها جميعا تحت إطار

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيــدة الاسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ — ١٥٠ .

جديد ، غير معهود من قبل ، هو إطار (العودة إلى الإسلام) ، كأسلوب للحياة ، ومصدر للتشريع ، وأساس للحكم ، ونمط للحياة . . كما هي الحال في كل بلاد الإسلام اليوم .

وبالرغم من أن (الثورة) في حد ذاتها (عيب) كبير ؛ لأنها تدل على (خلل) أصاب بنيان الأمة ، أو يصيبها . . ولأنها تدل على (عدم الاستقرار) ، وعدم الاستقرار ، لا يؤدي إلى تقدم حضاري ، ولا يسمح به . . إلا أن الثورة في حالة بلاد العالم الإسلامي المعاصر ، على النقيض من ذلك تماما .

إنها ظاهرة (صحية) ، بكل معنى الكلمة .

ذلك أنها تعني (الرفض) لكل ما هو قائم .

ولو كان هذا (الرفض) ، لمجرد الرفض ، على الطريقة الاشتراكية أو الشيوعية ، أو (الثورية) ، في الرفض والقبول ، لكان هناك كلام آخر .

ولكنه رفض ، مبني على أساس ثابت ، هو هو الأساس الذي يقوم عليه التقدم الحضاري : على نحو ما رأيناه في هذه الدراسة كلها .

إنه رفض للتقليد ، لمجرد التقليد ، وإصرار على العودة إلى النفس من جديد . . إلى التراث ، وإلى التاريخ . . إلى الاسلام .

وليس معنى العودة إلى الإسلام ، هو (رفض) الحضارة الغربية ، فيما ترفضه هذه (الثورة) الإسلامية العارمة ، التي (يغلي) بها الشرق الإسلامي ، لأن الحضارة الغربية الحديثة ، ليست إلا بعض نتاج الإسلام ،

ولو كانت كل نتاجه ، لكتب لهـا البقاء والخلود ، ولأسعدت الغرب والإنسانية اليوم ، بدلا من القلق القاتل ، الذى زرعته فى القلوب والنفوس .

وصحيح أن بعض (الثائرين) فى هذا العالم الإسلامى ، يرفضون هذه الحضارة ، بمختلف مظاهرها ومنجزاتها وأشكالها . لكن مثل هذا الموقف، يعتبر (رد فعل) طبيعياً فى أول الأمر ، يؤدى — بعده — إلى تعديل السلوك نحو الحضارة الغربية ، على النحو الذى وضحته يضاف إلى ذلك ، أن مثل هذا الفريق من الثائرين ، يعتبر فريقاً صغيراً . منكراً من القاعدة العامة العريضة ، للثورة الإسلامية ، بالرغم من أن صوته ، يعتبر أعلى الأصوات ، شأنه فى ذلك شأن الأقلية الموتورة ، فى أية جماعة بشرية .

فللمسلم أن يفخر بحضارته ، التى ظلت (متميزة) ، كامنة فى أعماقه ، رغم مافرض عليه من هوان ، ومن تخلف ، ومن بعد عن طريق الإسلام ، ومن برامج تعليم وتربية ، تباعد بينه وبين هذا الطريق . . الإسلامى .

وبهذه الحضارة الإسلامية ، التى يحق للمسلم أن يفخر بها ، كانت تجاربه المتعددة مع الغرب ، منذ اتصاله بالغرب الحديث . . فأحجم تارة ، وأقبل أخرى . . قبل أن يتبلور موقفه من هذه الحضارة ، على هذا النحو الأخير ، الذى وضحته : أخذ بحضارة الغرب ، فيما لايمس العقيدة ، ولا نمط الحياة .

ولقد كان الغرب الصليبى ، الحاقد على الإسلام منذ ظهوره ، حريصاً على (مسخ) حضارة الإسلام ، أى على إطفاء جذوته ، فى (قلوب) أبنائه ومعتنقيه والمؤمنين به ، بعد أن وجد أن (العدوان المسلح) عليه وعليهم ، لايزيد ناره إلا اشتعالا فى هذه القلوب :

— « وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ،

ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله، أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون »(١) .

— « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون »(٢) .

(١) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ٣٠ — ٣٢ .

(٢) قرآن كريم : الصف — ٦١ : ٩ .

مراجع الكتاب

اولا : المراجع العربيـــة :

١ ــ ا . ك . أوتاواى : التربية والمجتمع ــ ترجمة دكتور وهيب إبراهيم سمعان وآخرين ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٦٠ .

٢ ــ إبراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة الوعى العربى (بدون تاريخ) .

٣ ــ ابن عمار الصغير : التفكير العلمى عند ابن خلدون ــ الشركة الوطنية ، للنشر والتوزيع ــ الجزائر (بدون تاريخ) .

٤ ــ أبو الحسن الندوى : تأملات فى سورة الكهف ــ الطبعة الثالثة ــ المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧م .

٥ ــ أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ــ الطبعة الرابعة ــ دار القلم بالكويت ــ ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤م .

٦ ــ الإمام الأعظم ، أبو حنيفة ، رضى الله عنه : العالم والمتعلم ــ تحقيق محمد رواس قلعجى ، وعبد الوهاب الهندى الندوى ــ رقم (٢) من (تراث الإسلام) ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة الهدى بحلب ــ ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م .

٧ ــ أحمد أمين : « الشرق والغرب » ــ فيض الخاطر ــ الجزء السادس ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ ١٩٤٥ .

٨ ــ الدكتور أحمد حسن عبيد : « تعليم الكبار ، عبر العصور » ــ

علم تعليم الكبار — الجزء الأول — الجهاز العربى ، لمحو الأمية ، وتعليم الكبار — ١٩٧٦ .

٩ — د أحمد حمدى محمود : الحضارة — رقم (١٥) من (كتابك) — دار المعارف — ١٩٧٧ .

١٠ — الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسـلام — (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ .

١١ — آدم كيرل : استراتيجية التعليم ، فى المجتمعات النامية (دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى) — ترجمة سامى الجمال — مراجعة د . عبد العزيز القوصى — الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار (بدون تاريخ) .

١٢ — أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والإبداع عند العرب — ١ (الأصول) — الطبعة الأولى - دار العودة - بيروت — ١٩٧٤ .

١٣ — أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والإبداع عند العرب — ٢ (تأصيل الأصول) — الطبعة الثانية — دار العودة بيروت — ١٩٧٩ .

١٤ — اسماعيل محمود القبانى : دراسات فى تنظيم التعليم بمصر — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٨ .

١٥ — أرنولد توينبى : الحرب والمدنية - ترجمه أحمد محمود سليمان — راجعه الدكتور محمد أنيس — رقم (٥٠٧) من (الألف كتاب) — دار النهضة العربية — ١٩٦٤ .

١٦ — أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية - الجزء الأول — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت — ١٩٦٤ .

١٧ - أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية - الجزء الثانى - ترجمة أحمد الشيبانى - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٤ .

١٨ - أسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية - الجزء الثالث - ترجمة أحمد الشيبانى - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٤ .

١٩ - الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره - بقلم محمد عمارة - دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، بالقاهرة - ١٩٦٨ .

٢٠ - ألبرت أشفيتسر : فلسفة الحضارة - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى - مراجعة الدكتور زكى نجيب محمود - المؤسسة المصرية العامة . للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مارس ١٩٦٣ .

٢١ - دكتور الدمرداش سرحان ، ودكتور منير كامل : المناهج - الطبعة الثالثة - دار العلوم للطباعة - ١٩٧٢ .

٢٢ - ألدومييلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى - نقله إلى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى - قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى - جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية - الطبعة الأولى - دار القلم - ١٩٦٢ .

٢٣ - الرسالة القشيرية ، للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، والدكتور محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٧٢ .

٢٤ - السكان والسياسات الدولية - إشراف فيليب هوسر - ترجمة الدكتور خليل حسن خليل - مراجعة وتقديم الدكتور سعيد النجار - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٣ .

٢٥ — السيد محمود ابو الفيض المنوفى : أصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر ، للطبع والنشر - ١٩٦٩ .

٢٦ — العهد الجديد .

٢٧ — المعجم الوسيط - قام بإخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون - وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

٢٨ — المعجم الوسيط - قام بإخراجه : إبراهيم مصطفى وآخرون — وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الثانى — مجمع اللغة العربية — ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .

٢٩ — إلياس أنطون إلياس : قاموس الجيب ، انكليزى / عربى — المطبعة العصرية بمصر (بدون تاريخ) .

٣٠ — إلياس أنطون إلياس ، وإدوار ا . إلياس : القاموس العصرى ، عربى / إنكليزى - الطبعة التاسعة - المطبعة العصرية بمصر — ١٩٧٠ .

٣١ — أمين سامى باشا : التعليم فى مصر ، بين سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ — مطبعة المعارف ، بشارع الفجالة بمصر - ١٩١٧ .

٣٢ — أنور الجندى : الإسلام والغرب — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٦ .

٣٣ — ب . ج . وودز : التعاون الاقتصادى وأساليبه - الكتاب

الثانى من سلسلة (كتب الناقوس) — مراجعة وتقديم : عباس محمود العقاد ــ مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

٣٤ — برتراندرسل : نحوعالم أفضل - ترجمةومراجعة دريني خشبة ، وعبد الكريم أحمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية للطبع والنشر (بدون تاريخ) .

٣٥ — برنارد جافى : « صمويل بيربونت لانجلى » - ترجمة الدكتور محمد ممتاز الجندى — الفصل الرابع عشر من : **قادة العلم ، فى العالم الجديد** — الجزء الثانى — مراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٨ .

٣٦ — تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ١ (تطور المجتمعات) — إعداد اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو - الترجمة والمراجعة :عثمان نويه وآخران - الهيئة المصرية العامة ، للتأليف والنشر - ١٩٧١ .

٣٧ — تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٢ (صورة الذات ، وتطلعات شعوب العالم) — إعداد اللجنة الدولية، بإشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة: عثمان نوية وآخران — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٢ .

٣٨ — تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٣ (التعبير) — إعداد اللجنة الدولية ، بإشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة : عثمان نوية وآخران — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٢ .

٣٩ - تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل ، الحافظ عماد الدين أبي الفداء ، اسماعيل بن كثير ، القرشي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ - الجزء الثاني - ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

٤٠ - توماس مالثس وآخران: مشكلة السكان - ترجمة محمد خزبك - ومراجعة حسين الحوت - العدد (١٠) من (الشرق والغرب) - الدار القومية ، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

٤١ - ثياوريتشارد برجير : من الحجارة ، إلى ناطحات السحاب (قصة العمارة) - ترجمة المهندس محمد توفيق محمود - دار النهضة العربية - ١٩٦٢ .

٤٢ - ج . ف . نيلر : الأصول الثقافية للتربية، مقدمة في أنثروبولوجيا التربية - ترجمة الدكتور محمد منير مرسى وآخرين - عالم الكتب - ١٩٧٢ .

٤٣ - جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى - الطبعة الأولى - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ذو الحجة ١٣٨٩هـ - شباط (فبراير) ١٩٧٠م .

٤٤ - حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون - المجلد الأول - طبعة مصورة بالأوفست - مكتبة المثنى ببغداد (بدون تاريخ) .

٤٥ - دكتور حسن حسى أبو السعود : « النظائر المشعة ، فى خدمة الصناعة » - الذرة فى خدمة السلام - مجموعة المحاضرات ، التى ألقيت بالمؤتمر السنوى السادس والعشرين ، للمجمع المصرى للثقافة العلمية ، الذى عقد فى المدة من ٣١ مارس إلى ٥ أبريل سنة ١٩٥٦ - رقم (٢٧) من (الألف كتاب) - مكتبة مصر (بدون تاريخ) .

٤٦ ـ الشيخ حسنين محمد مخلوف : القرآن الكريم ، ومعه صفوة البيان لمعانى القرآن ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى - مطابع دار الكتاب العربى بمصر ـ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م .

٤٧ ـ الدكتور حسين فوزى النجار : الإسلام والسياسة ، بحث فى أصول النظرية السياسية ونظام الحكم فى الإسلام ـ مطبوعات الشعب ـ ١٩٧٧ .

٤٨ ـ د . م . تيرنر : الكشف العلمى ـ ترجمة أحمد محمود سليمان ـ مراجعة د . محمد جمال الدين الفندى ـ العدد (٥) من (العلم للجميع) ـ دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

٤٩ ـ الشيخ رحمت الله الهندى (١٢٣٣ ـ ١٣٠٨ هـ) : إظهار الحق ـ تقديم وتحقيق وتعليق : الدكتور أحمد حجازى السقا ـ الجزء الأول ـ دار التراث العربى للطباعة والنشر ـ ١٩٧٨ .

٥٠ ـ رالف لنتون : دراسة الإنسان ـ ترجمة عبد الملك الناشف ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٦٤ .

٥١ ـ دكتور رءوف سلامة موسى : فى أزمة العلم والجامعات ـ دار ومطابع المستقبل (بدون تاريخ) .

٥٢ ـ رينيه ديكارت : مقال عن المنهج ـ ترجمة محمود محمد الخضيرى ـ الطبعة الثانية ـ راجعها وقدم لها : الدكتور محمد مصطفى حلمى ـ من (روائع الفكر الإنسانى) ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ ١٩٦٨ .

٥٣ ـ الدكتور زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر ـ الطبعة الأولى ـ دار الشروق ـ يناير ١٩٧٦ .

٥٤ — دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى — عالم الكتب — ١٩٧٠ .

٥٥ — دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٥٦ — دكتور سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامى - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة — ١٩٧٨ .

٥٧ — دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الإسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ .

٥٨ — سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن-دار الشروق (بدون تاريخ) .

٥٩ — سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ .

٦٠ — سيد قطب : فى التاريخ ، فكرة ومنهاج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨م .

٦١ — سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الثالث (الأجزاء : ٨-١١) - الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧ م .

٦٢ — سيد قطب: فى ظلال القرآن - المجلد الخامس (الأجزاء : ١٩-٢٥) - الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٦٣ — سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية - الطبعة الخامسة - دار الشروق — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٦٤ — سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى الطبعة الثانية — دار الشروق

- ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٦٥ — الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية : الرسالة التبوكية - الطبعة الثالثة - نشرها قصى محب الدين بن الخطيب - مطبوعات المطبعة السلفية - ١٣٩٦ هـ .

٦٦ — صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ .

٦٧ — صحيح البخارى ، لأبى عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه ، البخارى الجعفى — الجزء الأول — دار ومطابع الشعب (بدون تاريخ) .

٦٨ — صلاح العرب عبد الجـــواد : اتجاهات جديدة ، فى التربية الصناعية — الجزء الأول — (دراسات فى التربية) — دار المعـارف بمصر — ١٩٦٢ .

٦٩ — طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — ١٩٣٨ .

٧٠ — دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : الشخصية الإسلامية ، دراسة قرآنية — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — آيار (مايو) ١٠٧٧ .

٧١ — دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ .

٧٢ — عباس محمود العقاد : إبليس (بحث فى تاريخ الخير والشر

وتمييز الإنسان بينهما ، من مطلع التاريخ ، إلى اليوم) ــ الطبعة الخامسة ــ دار نهضة مصر ، للطبع والنشر ــ ١٩٧٤ .

٧٣ ـ عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ــ الطبعة الأولى (المؤتمر الإسلامى) ــ دار القلم (بدون تاريخ) .

٧٤ ــ عباس محمود العقاد : الله ـ مطابع الأهرام التجارية ـ ١٩٧٢ .

٧٥ ــ عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ ، وكشوف العصر الحديث ــ رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) ـ يناير ١٩٦٨ .

٧٦ ـ عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام ــ دار الهلال ــ ١٩٧٠ .

٧٧ ــ عباس محمود العقاد : محمد عبده ــ الجمهورية العربية المتحدة ــ وزارة التربية والتعليم ــ ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣ م .

٧٨ ــ عباس محمود العقاد ، وأحمد عبد الغفور عطار : الشيوعية والإسلام ــ الطبعة الثانية ــ مطابع دار الأندلس ، للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م .

٧٩ ــ عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، تاريخنا القومى فى سبع سنوات (١٩٥٢ ــ ١٩٥٩) ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٥٩ .

٨٠ ــ عبد الرحمن بدوى : من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٤٥ .

٨١ ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية

ووسائلها — الطبعة الأولى — دار العربية ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

٨٢ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م .

٨٣ — الدكتور عبد العزيز الخياط : المجتمع المتكافل فى الإسلام — مؤسسة الرسالة ، ومكتبة الأقصى - ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م .

٨٤ — دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧٩ .

٨٥ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

٨٦ — دكتور عبد الغنى عبود : التربية ومشكلات المجتمع — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

٨٧ — دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية ،والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى —دار الفكر العربى - ١٩٧٦.

٨٨ — دكتور عبد الغنى عبود : الله ، والإنسان المعاصر — الكتاب الثانى من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٧٧ .

٨٩ - دكتورعبد الغنى عبود : الملامح العامة ، للمجتمع الإسلامى-الكتاب التاسع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)-الطبعة الأولى- دار الفكر العربى - فبراير ١٩٨٠ .

٩٠ — دكتور عبد الغنى عبود : أنبياء الله والحياة المعاصرة — الكتاب السادس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — سبتمبر ١٩٧٨ .

٩١ — دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة، لتاريخ التربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٩٢ — دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية، وقضايا أخرى — الكتاب السابع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يناير ١٩٧٩ .

٩٣ — عبد الكريم الخطيب : الله والانسان، قضية الألوهية... بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٩٤ — على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٦٥ .

٩٥ — الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الإسلامى للتاريخ — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٥ .

٩٦ — الدكتور عمر فروخ : « أثر الرسالة الإسلامية ، فى الحضارة الإنسانية » — مجلة الأزهر — مجلة شهرية جامعة ، تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، فى أول كل شهر عربى — الجزء الأول — السنة الثانية والخمسون — محرم / صفر ١٤٠٠هـ — ديسمبر ٧٩ / يناير ٨٠م .

٩٧ — فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر (بدون تاريخ) .

٩٨ — الدكتور فهمى جدعان : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام ،

فى العالم العربى الحديث — الطبعة الأولى- المؤسسة العربيةللدراسات والنشر — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ .

٩٩ — د . فؤاد زكريا : آراء نقدية ، فى مشكلات الفكر والثقافة ـ الهيئة المصريه العامة للكتاب — ١٩٧٥ .

١٠٠ — قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ـ مكتبة مصر ـ ١٩٦٠ .

١٠١ — قرآن كريم .

١٠٢ — ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — مراجعة أحمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى ـ الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والإرشاد القومى — الإدارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

١٠٣ — كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية — تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين ـ ترجمة حبيب أفندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ .

١٠٤ — « كتاب مناهج الألباب المصرية ، فى مناهج الآداب العصرية » ـ الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى — دراسة وتحقيق محمد عمارة — الجزء الأول (التمدن والحضارة والعمران) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٣ .

١٠٥ — كلنتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى ، فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه — تقديم صلاح دسوقى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٢ .

١٠٦ — كنت كراج : « التأثير الفكرى للشيوعية ، فى الإسلام

المعاصر » — الثقافة الاسلامية ، والحياة المعاصرة — مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون ، للثقافة الإسلامية — جمع ومراجعة وتقديم : محمد خلف الله — مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) .

١٠٧ — كولن ويلسون : ما بعد اللامنتمى « فلسفة المستقبل » — نقلها إلى العربية : يوسف شرورو ، وعمر يمق — الطبعة الأولى — منشورات دار الآداب — بيروت — نيسان (ابريل) ١٩٦٥ .

١٠٨ — لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — الجزء الأول — ترجمة دكتور عطية عبد السلام عاشور ، ودكتور سيد رمضان هدارة — مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد — رقم (١٠١) من (الألف كتاب) — دار الفكر العربى (بدون تاريخ) .

١٠٩ — لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — الجزء الثانى — ترجمة دكتور حسين أحمد فهيم — مراجعة دكتور عبد الحليم منتصر - رقم (١٠١) من (الألف كتاب) - دار الفكر العربى - ١٩٦٣ .

١١٠ — لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — الجزء الثالث — ترجمة دكتور عطية عبد السلام عاشور ، ودكتور سيد رمضان هدارة — مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد — رقم (١٠١) من (الألف كتاب) — دار الفكر العربى - ١٩٦٣ .

١١١ — اين بول : آفاق العلم - ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة - مراجعة وتقديم الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٠ .

١١٢ — ماكوتو آسو ، وايكوو آماتو : التعليم ، ودخول اليابان

العصر الحديث - سفار اليابان ، بجمهورية مصر العربية — ١٩٧٦ .

١١٣ — الإمام محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ .

١١٤ — الإمام محمد أبو زهرة : فى المجتمع الإسلامى — دار الفكر العربى (بدون تاريخ) .

١١٥ — دكتور محمد أحمد سلامة : علم النفس الاجتماعى — الجزء الأول — حول النظرية — مؤسسة سعيد للطباعة بطنطا - ١٩٧٩ .

١١٦ — محمد أسد : منهاج الإسلام فى الحكم — نقله إلى العربية : منصور محمد ماضى — الطبعة الثانية — دار العلم الملايين — بيروت — كانون الثانى ١٩٦٤ .

١١٧ — الدكتور محمد البهى : الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة - الطبعة الثانية - مكتبة وهبة — ١٣٩٨ ﻫ — ١٩٧٨ م .

١١٨ — الدكتور محمد البهى : الإسلام فى حياة المسلم - الطبعة الخامسة - مكتبة وهبة — رجب ١٣٩٧ ﻫ — يونية ١٩٧٧ م .

١١٩ — محمد الحسنى : الإسلام الممتحن — تقديم المفكر الإسلامى الكبير ، أبو الحسن الندوى - الطبعة الأولى - المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ ﻫ — ١٩٧٧ م .

١٢٠ — الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، وأثرهما فى

حياة الفرد والمجتمع - الطبعة الأولى - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٨ .

١٢١ — محمد توفيق خفاجى : أضواء على تاريخ التعليم ، فى الجمهورية العربية المتحدة — إشراف ومراجعة دكتور إبراهيم حافظ — وزارة التربية والتعليم — مركز الوثائق والبحوث التربوية — مطبعه وزارة التربية والتعليم — ١٩٦٣ .

١٢٢ — الدكتور محمد حسين هيكل : الحكومة الإسلامية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٧ .

١٢٣ — محمد شديد : منهج القرآن فى التربية — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجاميز (بدون تاريخ) .

١٢٤ — الدكتور محمد طلعت عيسى : البحث الاجتماعى ، مبادئه ومناهجه - الطبعة الثالثة - مكتبة القاهرة الحديثة - ١٩٦٣ .

١٢٥ — الأستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد — تعليق السيد الإمام محمد رشيد رضا — الطبعة الثامنة عشرة — مكتبة القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

١٢٦ — الدكتور محمد على أبو ريان : الفلسفة ومباحثها ، مع ترجمة كتاب (المدخل إلى الميتافيزيقا) ، لبرجسون — الطبعة الثانية — دار المعارف — ١٩٦٨ .

١٢٧ — محمد قطب : التطور والثبات ، فى حياة البشر — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

١٢٨ — محمد قطب : قبسات من الرسول - الطبعة الثانية — دار الشروق (بدون تاريخ) .

١٢٩ ــ محمد مجدى مرجان : الله واحد ام ثالوث ــ دار النهضة العربية (بدون تاريخ) .

١٣٠ ــ الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ــ الطبعة الثانية ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

١٣١ ــ محمد مظهر الدين صديقى : ما هو الاسلام ــ رقم (٣) من سلسلة (نحو وعى إسلامى) - المختار الإسلامى - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م .

١٣٢ ــ محمود عبد الرزاق شفشق ، ومنير عطا الله سليمان : تاريخ التربية ، دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية - ار النهضة العربية - ١٩٦٨ .

١٣٣ ــ مختار الصحاح ، للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ــ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ــ ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م .

١٣٤ ــ الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام ــ دار ومطابع الشعب ــ ١٩٦٢ .

١٣٥ ــ الدكتور مصطفى السباعى : السنة ، ومكانتها فى التشريع الإسلامى - الطبعة الثانية - المكتب الإسلامى - بيروت - ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٣٦ ــ مصطفى أمين : تاريخ التربية ــ الطبعة الأولى ــ مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر ــ ١٣٤٣ هـ ــ ١٩٢٥ م .

١٣٧ ــ مقدمة العلامة ابن خلدون ــ المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ) ــ وكذا طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٧ هـ .

١٣٨ — ميرزا محمد حسين : الإسلام وتوازن المجتمع - ترجمة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الإسلامية) — دار الثقافة العربية للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م .

١٣٩ — ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية — الطبعة الثانية — مطبعة التضامن — بغداد - ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

١٤٠ — الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار — ترجمة الدكتور ألفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل - رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) — مكتبة نهضة مصر ومطبعتها (بدون تاريخ) .

١٤١ — هنرى سيمات ، وهارفى هوايت : فيزيقا العصر الذرى — ترجمه دكتور فتحى أحمد البديوى ، وراجعه دكتور محمود مختار — رقم (٥٢٦) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٤ .

١٤٢ — هيوسيتون واطسون : ثورة العصر ، بحث فى فلسفة السياسة والاجتماع — الكتاب الأول من سلسلة (كتب الناقوس) — ترجمة محمد رفعت — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١٤٣ — والدمار كمفرت : فتوحات علمية - ترجمة يوسف مصطفى الحاروني — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٥١٣) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٤ .

١٤٤ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول

العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٩ .

١٤٥ — ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثالث (الهندو جيرانها) ـ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٠ .

١٤٦ ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الخامس (الشرق الأقصى) (اليابان) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥١ .

١٤٧ - ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الأول (الشرق الأدنى) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ .

١٤٨ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الأول (٤) (الشرق الأقصى) (الصين) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ .

١٤٩ — ول ديورانت قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٣ .

١٥٠ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٤ .

١٥١ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) - ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥م .

١٥٢ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٥٣ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثالث ١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٥ .

١٥٤ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الخامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الإيمان) - ترجمة محمد بدران — الإدارة الثقافية ، فى جامعة الدول معربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٥٥ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية ، فى العصور القديمة ، دراســـة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ .

١٥٦ - الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية ، فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

١٥٧ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى - مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur-an, Text, Translation, and Commentary, Volume One; Third Edition, Hafner Publishing Company, New - York, U.S.A., 1946.

2 — AL-NAHDA DICTIONARY, English - Arabic, Compiled by : ISMAIL MAZHAR, Revised by : MOHAMMAD BADRAN and I. ZAKI KHORSHID, Vol. I.; First Edition, The Renaissance Bookshop (Without date).

3 — DEWEY, JOHN : Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education ; The Macmillan Company, New - York, 1916.

4 — DEWEY, JOHN : Education To-day ; G. P. Putman's Sons, New - York, 1940.

5 — DUBIN, ROBERT : Human Relations in Administraion, with Readings ; Third Edution, Prentice - Hall of India Private Limited, New - Delhi, 1977.

6 — FORSTER, LANCELOT : The New Culture in China, with an Introduction by : Sir Micheal Salder ; Goerge Allen & Unwin Ltd., London, 1936.

7 — HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Tranditions ; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958.

8 — RADWAN, ABU AL-FUTOUH AHMAD : Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals for the Reconstruction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trands : Bureau of Publications, Teachers College, Columbia University, New—York, 1951.

9 — SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDER : Vocabulaire, Francais - Arabe ; Longmans, Green and Co., London, 1951.

10 — SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education, Philosophical Library, New - York, 1955.

11 — The Concise Oxford Dictionary, of Current English, Edited by : H. W. FOWLER and F. G. FOWLER, based on : The Oxford Dictionary ; Fourth Edition, Revised by : E. Mc INTOSH, Oxford, at the Clarendon Press, 1959.

12 — THUT, I. N. : The Story of Education, Philosophical and Historical Foundation ; Mc Graw-Hill Company, Inc., New-York, 1957,

13 — WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary ; Revised Edition, Longmans, Gree nand Co., London, 1948.

للمؤلف

اولا : من كتب التربيـــة :

١ — **فى التربية المقارنة** — عالم الكتب — ١٩٧٤ (مع الدكتورة نازلى صالح) .

٢ — **الأيديولوجيا والتربيـــة ، مدخل لدراسة التربيـــة المقـــارنة** — دار الفكر العربى — الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانيـــة ١٩٧٨ ، والطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

٣ — **نحو فلسفة عربية للتربية** — دار الفكر العربى (مع الدكتـــور عبد الغنى النورى) — الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٩ .

٤ — **فى التربية الاسلامية — الجـــزء الأول** — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٥ — **فى التربيـــة المعـــــاصرة** — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ — **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٧ — **ادارة التربية ، وتطبيقاتها المعاصرة** — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٨ — **البحث فى التربية** — دار الفكر العربى — ١٩٧٩ .

٩ — **التربية ومشكلات المجتمع** — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

١٠ — **الفكر التربوى عند الامام الغـــزالى ، كما يبـــدو من رسالته (ايهـــا الولد)** (دار الفكر العربى) (تحت الطبع) .

١١ — **فلسفة التعليم الابتدائى وتطبيقاته** — دار الفكر العربى (مع الدكتورين حسن عبد العال ، وشوقى ضيف) (تحت الطبع) .

ثانيا : كتب سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)

(وتصدرها كلها : دار الفكر العربى)

١ — **العقيدة الاسـلامية ، والأيديولوجيات المعـاصرة** — الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٢ — **الله والانسان المعاصر** — الطبعـة الأولى ١٩٧٧ ، والطبعـة الثانيـة ١٩٨١ .

٣ — **الاسلام والكون** — الطبعـة الأولى ١٩٧٧ ، والطبعة الثانيـة ١٩٨١ .

٤ — **الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر** — يناير ١٩٧٨ .

٥ — **اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة** — يونيـة ١٩٧٨ .

٦ — **انبياء الله ، والحياة المعاصرة** — سبتمبر ١٩٧٨ .

٧ — **قضية الحرية ، وقضايا أخرى** — يناير ١٩٧٩ .

٨ — **الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة** — يونيـة ١٩٧٩ .

٩ — **الملامح العامة للمجتمع الاسلامى** — فبراير ١٩٨٠ .

١٠ — **ديناميات المجتمع الاسلامى** — يونية ١٩٨٠ .

١١ — **الحضارة الاسلامية ، والحضارة المعاصرة** — فبراير ١٩٨١ .

الكتاب التـالى من كتب السلسلة :

الدولة الاسلامية والدولة المعاصرة

يصـدر فى منتصف هـذا العـام باذن الله

رقـم الايداع ٢٧٢٣ / ٨١
٩٧٧ — ٣٠٦ — ٢٧٦

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحاني - القاهرة
تليفون : ٧٦-٧٤٤ - ٧٤١٦٩٨

فى هــذا الكتاب

انها كتابات كثيرة ، تلك التى كتبت عن الحضارة •• ولكن كثرتها تزيد فى بلبلة القــارىء ، أكثر مما تقدم له فكرا معينا •• يضع يده على خيوط الموضوع ، ليصنع من الخيوط ، نسيجا متكاملا •

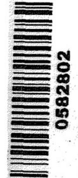
أما الحضارة الاسلامية ، فان الكتابات الكثيرة التى تدور حولها ، كتابات متناقضة تماما ، فبعضهم يعتبرها حضارة همجية ، كل مهارتها أنهــا جمعت حضارات الســابقين ••• ثم توقفت ، وبعضـــهم يراها حضارة شهوانية ، شقت طريقها الى صفحات التـــاريخ ، بتعبيرها عن ذاك المسلم الشهوانى ، الذى فرض نفسه على التاريخ فترة ، كانت — فى نظره — أشد فترات التاريخ الانسانى ، سوادا وهمجية •

وبعضهم أنصف الحضارة وأنصف الاســلام وأنصف المسلمين ، ولكن انصافه لم يزد على أنه لم (يتهم) الاسلام بالهمجية ، والمسلمين بالشهوانيـــة ، وانما عرض لحضارة الاســلام ، (بنزاهة) ، عرضــه للحضارات الهندوكية أو البوذية أو البابلية أو الآشـــورية أو الفينيقية أو المصرية القـــديمة •

الكتاب التالى من كتب السلسلة :

الدولة الاسلامية ، والدولة المعاصرة

يصدر فى منتصف هذا العـــام باذن اللـــه



الثمن : ١٥٠ قرشا .